

احمد علبي

تحت وسادتي

مقالات واعترافات وذكريات



تحت وسادتي

مقالات واعترافات وذكريات

★ د . أحمد علَبي: تحت وِسادتي، مقالات واعترافات وذِكريات

★ الطبعة الأولى ١٩٨٦

★ الناشر: دار الفارابي، بيروت

ص. ب. ـ ٣١٨١ / ١١، المركز الرئيسي

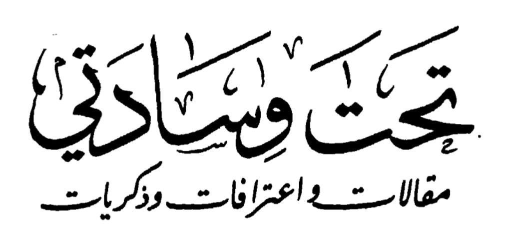
برقياً ـ دافارابي

تلكس ـ LE ٢٢٩٢٥

هاتف ـ ٣١٧٢٠٥

★ الغلاف والرسوم الداخلية: عبدالله ف. كحيل

أحمد علبي





١٩٨٦

إلى

"حسين مروّه"

الإنسان والمفكّر والمناضل والصّديق.

ودُمْتَ لنا في المودّة والعطاء مشْعلاً ومثالاً، وفي المثابرة والإصرار قدوة ونبراساً.

الروضة البهيّة

بقلم: حبيب صادق

في المأثور من القول إن المرء لا يلج ماء النهر مرتين اثنتين، مهما اجتهد، بل مرةً واحدةً لا أكثر. فهو، من هنا، يجد نفسه محكوماً بالبقاء المؤبّد في مصبّ التحوّلات المستمرة ما استمرت حركة المياه في مجراها، ثم ما استمر، هو ذاته، في ضيافة هذا الخير الدافق.

هناك، إذن، فعلُ ولادةٍ متواصلٌ يجري في أحشاء النهر أو، بكلام آخر، هناك جديد يتدفق أبداً في هذا الشريان المائي، وذلك برغم تشابه العناصر في محتواه، وبرغم تماثل الصور في الشكل.

يسوقني إلى هذا القول وجه مغاير تبدّى لي، على حين فجأة، في تلك الأوراق المرهفات التي مسح عليها بقلمه الثريّ الـمُلْهَم الصديق أحمد عُلَبي، فصارت إلى خضرة دائمة وصارت إلى تألّق لا يخبو. لقد تمثّل هذا الوجه المغاير في جديد من الأثر الأدبي تلامح في متون هذه الأوراق، بجلاء وسطوع، فوقعتُ منه على مزيد

من المتعة الروحية وعلى مزيد من الفائدة الأدبية.

وإذ أشير، هنا، إلى هذا «الجديد» فإنما أقصد إلى بيان عَلاقتي الخاصة بتلك الأوراق التي صارت، على يَدَيْ صنَاع ماهر، إلى خضرة دائمة وإلى تألّق لا يخبو.

وفي هذا المجال أستدرك فأقول بأنه لا يسعني الكلام على طبيعة العَلاقة التي تشدّني إلى الصديق أحمد، لكونها ذات عراقة وسعة وغنى يتعذر عليّ، معها، الخوض في عُبابها الجامح أو الوقوف عند شواطئها المتراميات. حسبي، هنا، من الاستطاعة إلقاء الضوء على طبيعة عَلاقتي بهذه الأوراق، وحدها دون غيرها، فهي تتسم بخصوصيّة دافئة وتتمتع بجوّ رائق حميم. إذن هي لم تكن وليدة الفرصة الثمينة التي أتاحها لي أحمد، قبل أيام قلائل، إذ استودعني أوراقه الغاليات لفُسحة من الوقت تكفي لاستنشاقها، بتأنٍ، والتملّي من عبيرها الفوّاح الطازَج. وهي، بعد، في طريقها إلى دار النشر لتخرج منها إلى الناس نتاجاً أدبياً جديداً ينضاف إلى سابقه في خط بيانيّ صاعد، من شأنه أن يعطي صورة باهرة عن الخصوبة والجودة وصدق الالتزام.

أقول إن هذه العَلاقة الخاصة لم تكن وليدة تلك الفرصة، على أهميتها، بل كانت، في الواقع، وليدة ستّ من السنوات السّمان بالأحداث الجِسام والمتغيرات العميقة على مستوى الوطن بأسره. فعلى امتداد هذه السنوات السّمان كانت هذه الأوراق تتوالد، تِباعاً، متحدّية، بإرادة واعية، فصول الأعاصير والزلازل، مستوية على مرتبة عالية من النضج والسَّداد والأناقة.

وعلى امتداد هذه السنوات بالذات كنتُ على موعد معها مقيم، تلك الأوراق، فأشهدها، بحرص ومتعة، كيف تتوالد وتتنامى، رغم فصول الأعاصير والزلازل، وكيف تترامى ظلالها وتتدلّى قُطُوفها في ما يشكّل، معاً، روضة مُثقلة بصنوف الثمر والزهر والطير.

من هنا يسعني القول بأني قد حظيت، وحدي من دون الآخرين جميعاً، بالاطّلاع، مرتين اثنتين، على هذه الصفحات النابضة بأوجاع الناس وأحزانهم، الناطقة بأشواقهم وإراداتهم والطموحات. ففي المرة الأولى رأيتني أُقبل عليها بشَغَف وهي منثورة، بدراية حاذقة، في الحقول المخصّصة لثمار الأدب والفن في صِحافتنا اليومية والأسبوعية. وفي المرة الثانية بشَغَف أقوى وهي مجتمعة في أسرة واحدة يشدُّ بعضها بعضاً، فتزداد تماسكاً وصلابة، وتتضاعف حُجّة وبيانــاً، الأمر الذي جعلها تبدو أبهى حُسْناً وأكمل تكويناً وأصوب رأياً.

صحيح أن المادة الكتابية بقيت هي إياها في الحالين، لم يطرأ عليها عارض من تغيير أو تعديل، إنما صحيح أيضاً أن هذه المادة عينها قد برزت، في حالتها الثانية، على جانب أعظم من الوضوح والنضارة والتكامل. وهذا الواقع إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على المهارة في التقاط سر الأشياء، والبراعة في اختيار الملائم لجسد هذا السر من خزائن اللغة والأساليب. يبقى أن حجر الزاوية في عِمارة القول لا يتجسّد إلا في بلاغة الصدق للتعبير عن شؤون الحياة وشجونها، خصوصاً في مراحل المخاضات الكبرى كمثل المرحلة

التي نخوض غمارها راهناً، فهي مثخنة بالمخاطر والانهيارات، ولكنها، رغم ذلك، مكتنزة بالإرادات المتحدية والاحتمالات الجميلة.

لعلها تلك علامة المستوى في العمل الإبداعي على اختلاف تجلّياته وتباين صور تحقّقه. فسواء في ميدان الأدب أو الفن، أو في غير هذا وذاك من ميادين، يبدو الأثر الإبداعي الوازن مترعاً، أبداً، بالفتوحات وخوارق الكشف.

فعلى سبيل المثال قد يمعن المرء نظره في لوحة فنّية مستجلياً بواطنها المستخفية، إلى أن يطمئن، في قرارة نفسه، إلى أنه قد وصل إلى غايته ظافراً. وإذ به يكتشف، حين يعود إليها ثانية، أن سراً من أسرار جمالها، كان مستغلقاً عليه قبلُ، يُسفر عن وجهه الآن فيخطف بصره ويأسر منه القلب.

أرأيتَ إلى مياه النهر كيف تستقبلك بالولادات العذارى على نحو مستمر، ما استمر بقاؤك في حِضنها الحرير المنعش!

* * *

هذا قليل من كثير أقتطفه، على عجل، من حكاية هذه الأوراق في وجهيها جميعاً: ذلك الموزّع شعَاعاً وطلاوة على مطارح القول الجميل، وذاك المنعقد في مجلس الوَحدة استكمالاً لدوره العظيم في الإضاءة والتعبئة وفي إشاعة الحُلْم والفرح.

أما صاحب هذه الأوراق فهو، في الحالين، لم يبرح موقعه الثابت القائم، أساساً، على المستوى وعلى الموقف والشجاعة. تراه يمتلك، بتواضع جمّ، ثروة باذخة من

اللغة والثقافة، ويتمتع بقدرة فائقة على قيادة القولين معاً في الاتجاه الصائب المثمر: القول الجادّ الرصين والقول الضاحك الساخر. فهو، من هنا، يأخذ مكانه، بجدارة، بين سادة من برعوا في إنزال مقال الجِدّ والحزم في مقامه الصحيح والأصيل، وكذلك مقال الدُعابة والفُكاهة والسخرية. ولشد ما نفتقر، في يومنا الراهن المأزوم، إلى أسلوب في الكتابة، يضارع هذا الأسلوب، نتخفّف، في ظِلّه، من عبء الأثقال التي تُنهك قوانا وتفسد علينا الحياة، ثم نتناول، من ثمره، ما يشيع العافية والنضارة في عقولنا والقلوب.

لم يقع في عزمي، وليس في مقدوري، ان أرسم، بالكلمات، لوحة بيانيّة تشتمل على جميع مصادر الضوء وعلى مختلف حقول الطِّيب والندى في هذه الأوراق ـ الحدائق.

حسبي، من هذا الأمر، ما تقدّمتُ به من سانح الإشارة لأجدني، الآن، ملحِقاً بما قدّمت إضافتين عابرتين. يختصر الأولى منها، بلغته الأنيقة الطليّة، أحمد عُلَبي نفسه، إذ يحدّثنا، في واحدة من أوراقه عن ميل شخصيّ لديه نحو الاستطراد والتنقّل في ملاعب الكَلِم فيقول: «شرعتُ في هذا التمهيد على أمل أن يكون بضعة أسطر ثم أدلف بعدها إلى خواطري الطيّارة، وإذا بالحديث يستفيض، وكما نقول فالكلام يجرّ الكلام».

أما الإضافة الثانية فبوسعي اختصارها بالإشارة إلى ذلك الهاجس العظيم الذي يسكن أحمدَ ويأخذ عليه أقطاره جميعاً، فتعجب، من بعد، كيف يتأتى له أن يمتلك وِسادة يستريح إليها ويخفي تحتها كل هذا

الجميل المضيء من «المقالات والاعترافات والذكريات».

ما أيسر أن تستكشف هذا الهاجس، وما أسهل أن تُمسك بقياده، فهو ساطع هادر في جميع مخبآت الوسادة. وهو ذو وجهين اثنين مختلفين في كائن واحد متغيّر هو الوطن. فثمّة وجه يمثّل الجنوب فالشمس والمستقبل، وثمّة آخر يمثّل الأطلال والدماء وعفونة الماضي. إسمع إليه يصرخ، بصوت نازف: «ويا مجمع الطوائف والقبائل متى تصير وطناً حقيقياً لا فولكلوراً تهريجياً يقضي على الآمال والأعمار؟»... يصرخ، نعم، ولكنه يتقدم جنوباً حيث المخاض العظيم المبشّر بولادة هذا الوطن الحقيقي لا محالة.

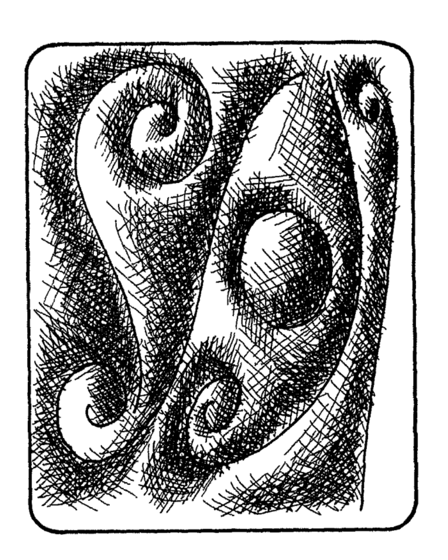
وبعد، فلست بقادر، مهما حاولت، على صياغة ذلك العنوان المعبّر، بدقة وشمول، عن مجمل الانطباعات والمشاعر التي تحصّلت عندي أثناء السفر، مرتين، في ظلال تلك الأوراق التي صارت إلى خضرة دائمة وتألّق لا يخبو.

من هنا أراني مسوقاً باتجاه «الوِسادة» الحاضنة إياها أستنجد بها، في حَيْرتي، فتُنجدني، مأجورة، بكلام، هو فصل الخطاب، منقولٍ عن سيّد البيان، الجاحظ أبي عثمان، في وصف أليفه الكتاب: «فمتى رأيتَ بستاناً يُحمل في رُدْن، وروضة تُقَلّ في حِجْر».

ذلك هو العنوان الذي تطامنت إليه نفسي وسعيتُ نحوه محاولاً، ولكني تعثّرت دونه خائباً، فجاءني أبو عثمان، في عَبَاءة «العُلَبي»، فتداركني بجميل نعمته. فجزاهما الله، معاً، منّي خيراً...

بيروت في ٢٠ / ١٠ / ١٩٨٦


١
صُراخ وهَمْس



وطن اليباس

حتى شجرُ الأرز العتيق دهمه في وطننا اليباس، وقد هرع إليه الإخصائيون يقلّبون النظر في حشرات لاحظها الأهالي تنتشر في المنطقة وتبثّ في أعضاء الأرز الموَات وفي خلاياه «التخشّب». وهذه الأذرع الممتدة عند الأعالي لعشرات السنين دون كَلاَل، لكأنها تدعو زوّارها الى واحة الظِلّ والندى والعبق التاريخي، يُخشى عليها أن تنخفض وتطوي أشرعتها وتطأطىء هاماتها، كمن يودّع إيذاناً بالرحيل.

هذا الجمال الساجي على الدهر اندثرت غاباته التي ورد ذكرها في الأسفار، ولم يبقَ منه سوى باقة معدودة القامات كم لجأنا الى ظلالها في عهد الطّلَب وأيام السكينة نصغي فرحين مأخوذين بصوت «فيروز» الحقيقي، يوم كان لنا فرح ومهرجانات، تتردد أصداؤه وتتفلت عبر أصابع الأرز الى الوديان الخاشعة والسماوات الزرق والغيوم العابرات.

لقد ولّى ذلك الزمن الذي كان يزدحم فيه لبنان بغابات الأرز والسَّرْو والسنديان والشربين والصَّنْدل تعبَقُ بالشَّذَا، حتى غدت كلمة لبنان مرادفة أحياناً لمعنى الغابة. وكان الأرز بين الأشجار ملكاً متوّجاً، وعندما طلبت الشجرات، كما ورد في الكتاب المقدّس، من العوسجة أن تكون ملكة عليهنّ قالت العوسجة: «إنْ كنتنّ تمسحنني ملكة عليكنّ فتعالين استظللن بظلي، وإلا فلتخرج نار من العوسجة وتحرق أرز لبنان». ولكن «غرس الرب» بات حكاية من الماضي، ونحن نحيا زمن الأطلال.

لم يعد عندنا خشب الأرز نصدّره على صدر البحار، وفنيّون بأحواله يرفعونه عُمُداً لقصور وهياكل. لم يعد عندنا خشب الأرز يحتزّه

الصَّيْدونيّون ولا أمهر، ونمتطيه سفناً ماخرة وأساطيل فارهة. لم يعد عندنا ظلال وأفياء وروائح، فالذين تسلّطوا على هذا البلد، مذ صاح المِذياع ذات يوم بنفير الاستقلال، حوّلوه إلى مزرعة تدرّ حليباً لجيوبهم والى كهف يحيكون في ظلمته الصفقات. فغدا الوطن صَفْقة كبرى، ولم يبقَ له رائحة وأريج. وصار ما ورد في «نشيد الأناشيد» ترنيمة وحنيناً، وفي أيدي لصوص هيكل هذا الوطن ابتزازاً ومتاجرة: «شفتاكِ تقطران شَهْداً أيتها العروس، وتحت لسانك عسل ولبن، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان»!

لقد أغويت أيها الأرز أعلام التاريخ: سليمان فتنته، وقُورُش سحرته، وسنحريب جذبته. فكنت في الزمن القديم جبلاً زاهراً آسراً، وهكذا كان حَرَمون والكَرْمل. لكن الفتور أدركك، وأخشى على بقايا أفنانك وقاماتك أن يغالبها الإعياء. البعثة العلمية التي عاينتك تقول إن اليباس الذي يدهمك مردّه إلى فراشات ليليّة تضع بيضها على أوراقك، وإذا بهذا البيض يتحول إلى يَرَقات تلتهم البراعم والأوراق، فيكون اليباس، إذ ليس أشد خطراً من بعض أنواع الحشرات في طور الولادة هذا.

الفراشات الليليّة تعبث بك يا وطني لأن الذين أمسكوا بزمام سفينتك منذ فجر تشرين ٤٣ قادوها الى التعصب والفُرقة والتقسيم الخفيّ، فبنَوْا دولة أساسها الرمال والهوان والديدان وأركانها الخَوَر والعبث والبُهتان!

وعلى طاولتي التي أحبّر فوقها همومي صحنٌ صغير من خشب الأرز بلون السنديان، تتوسّطه مَشْحَة بُنّية اللون تتخللها دائرتان لولبيتان. وكلما استبد بي التعب وتطلعت نفسي بشَرَهٍ إلى سيكارة لا سبيل الى تنفيخها، مذ أقلعتُ عن التدخين مجبراً لا بطلاً، فقد ولّى عهدها، أقصد البطولة لا السيكارة. أقول كلما سرحت بي الأماني والتهويمات أجدني ألتقط بين أصابعي هذا الصحن الخشبي الصغير، مقلّباً إياه ومُدْنياً صفحته من أنفي، أسحب أنفاساً عميقة، فتخترق صدري رائحة معتّقة هي شَمِيم

غابة الأرز المقدسة. وكان من دأب زوجتي، سامحها الله، أن تطفىء أحياناً عقب سيكارتها في وسَط هذا الصحن الخشبي الذي أُعدّ أصلاً ليوضع فوقه قدح ماءٍ أو شرابٍ وليس ليلعب دور المِنْفضة. ولهذا فإن تكرار غسل هذا الأثر الوافد من غابة الأرز بالماء، بغية تنظيفه من آثار أعْقاب السكائر، أحدث فيه شقوقاً وعلت مَشْحته البُنّية ندوبٌ مسودّة. ولكنه ظل، شأن المسك، تفوح منه الرائحة وتتغلغل كلما أدنيته من روحك. وتَعْساً لصانع هذا الصحن فقد ختم على قفاه بالأجنبية عبارة: أرز لبنان، فكان في صنيعه كمن يسجّل على الحائط: هذا حائط! إذ هل يخفى خشب الأرز؟ وهل رائحته شأن رائحة الشوح مثلاً، إذا كان لهذا الأخير من فَوْح، أم هي حكاية المستطعم والشامّ؟

إثر النكسة وقف المواطنون في مصر الغالية يشاهدون حريق الأوبرا والدموع في مآقيهم. ولكن رُبّان سفينتهم كان رجلاً لا كالرجال، بورك البطن الذي أطلعه. ونحن قادت سفينة استقلالنا بورجوازية تجارية خسيسة أكلت الوطن ولفظته عظاماً ويباساً. وأخشى ما أخشاه أن نقف ذات يوم حالك بائس أمام غابة أرزنا في بْشَرّي فنراها وقد استحالت الى هشيم وأحزان!

(١٩٨١)

«أفوتك بعافيه»

ترفقي أيتها الأيام. فقد طال بنا الأسى واستوطن. وإذا كان «بوشكين» قد قال إننا أوحينا نحن العرب للشعر في العالم نشوة الحب ونعومته. فإن زمن الحب ولّى عن ديارنا وهاجر، بغير عودة قريبة منظورة أو مأمولة. نحن نعيش زمن الرعب والأجساد المتطايرة والعيون المطفأة وكاتم الصوت والروح. نحن نحيا زمن الأصابع، ليست هي الأصابع الحانية والمداعبة، ليست هي أصابع الرأفة والنور، إنها الديناميت! أيّ حقد يمخر بحيرة أيامنا، أيّ قبليّة ولا أفظع! تُرى ألم نتجاوز عصر الجاهلية الجهلاء أم أنها الرِدّة الثانية؟ فأين الصدّيق، وماذا يفعل عمر، وكيف يسكت عليّ؟

بات الضحك تهمة أو غوَاية. لم يعد فيض النفس الولهى، أو رائحة الأرض المحروثة، أو ركض الحبيب الى الحبيبة. صار الضحك صناعة وافتعالاً، محاولة هروب وارتداد، متراساً وهمياً في وجه الزمن. اللهُمّ ارزقنا ضحكاً نقيّاً يعمر حقول العمر الزاوية ويرتدّ عافية ونضارة. فحياةٌ من غير نعمة الضحك المعافى هي إطار من غير لوحة وامرأة بغير قلب ولا شَفَة. ولكن من أيّ كُوَة يدلف الى حياتنا هذا الضحك ونحن نعلم الحاضر البائس وخفايا المستقبل المثقل باحتمالات التعاسة ومزادات الرئاسة؟ إن في آذاننا وَقْر ما قال النبي في بعض خُطَبه: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»! ونحن، حاشا الادّعاء والغرور، نعلم الشيء الوافر عن بلوانا، فكيف يواتينا بعدها ضحك من القلب دافق؟

هي شهادة مغمّة عن حال الأمة، والقارىء في حِلّ من الأخذ بها، خصوصاً إذا عرف أن الذي يدلي بها يمتهن التعليم، أي أنها في نظر بعض

القدامى من « النبهاء » غير مجازة إلاّ على مضض! فلقد جاء في كتاب « المحاسن والمساوىء » للبَيْهقي الرواية التالية: « قال: شهد رجل عند سوّار القاضي فقال: ما صناعتك؟ قال: معلّم. قال: فإنّا لا نجيز شهادتك. قال: ولِمَ؟ قال: لأنك تأخذ على التعليم أجراً. قال: وأنت تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً. قال: أُكرهت عليه. قال: فهَبْكَ أُكرهت على القضاء فمن أكرهك على أخذك الأجرَ والرِّزقُ على الله؟ فقال: هلمّ شهادتك، فأجازها »!

فلعل بعض المطالعين لهذه المقالة يميل عنها شاجباً ما فيها من سلبية وعبوس، ولعل البعض الآخر يجد فيها تفريجاً عمّا يعانيه من كَرْب وضيق. وأنا بعد هذا لم أكتب لأُرضي وأسيء، ولا لأُفرح وأُحزن، إنما لأبوح بما يضجّ في صدري وما يجول في خاطري. وليس على المطالع حَرَج إذا نعت هواجسي بالاضطراب وآرائي بالاعوجاج والضعف، فإن لسان حالي يردد ما قال أبو العلاء المعرّي ذات مرة:

خُذِي رأيي وحسبُكِ ذاك منّي   على ما فيّ من عِوَجٍ وأَمْتِ.

ورُبَّ نَزِقٍ يعود نَسَبه إلى قيس عِيْلان يبادر الى القول: وكيف هذا وحال الأمة لا يسمح بالهذيان أو التردد أو الرأي اليائس؟ صحيح فالديمقراطية لم تصبح بعدُ مُناخاً سائداً في مسلكنا الحياتي وتعاطينا الفكري. أنت من رأيي، إذاً فنحن حليفان وأخَوان. أنت تخالفني الرأي، إذاً فالخصام ما بيننا ويا لثارات عَبْس! الديمقراطية خبز لم يخرج بعدُ من أفران أحزابنا، ومُنيتنا أن الخبّازين يعملون. إذ لو لم يكن هناك بصيص أمل لانتفت الكتابة، ولتكسّرت الأقلام، ولأدار الناس ظهورهم بشكل نهائي يلتمسون في بيوتهم كهفاً يأوون اليه.

وها هو عام جديد يُطلّ علينا شئناه أم أبيناه، فنهر الحياة جارٍ بلا هوادة، وهو لا يطلب منا رأياً أو إذناً. إنه لا يتعاطى لعبة الديمقراطية، ولا يستفتينا في إقباله ولا إدباره، وإنما يفرض نفسه فرضاً. هو الزمن يملي جَبْره، ولا اختيار لنا فيه، ويحملنا في خضمّه الزاخر نقطع فصولاً

أربعة، ونزداد قلقاً بفعل دبيب السنين في أجسادنا. فنتحسس شعرنا علّ مساحات البياض لم تنتشر، هذا إذا كان ما يزال سالماً فوق رأسنا لم يهرّ أو يخفّ! ونتفحّص جسمنا نبحث عن رشاقة في طريق الضياع، ونفاجأ أن هذا الوعاء الذي كان جميلاً ربما، بدأ السِّمَن يدهمه بعد هُزال، هو للأسف سِمَن الأعوام الراكضة فوقنا وبنا! ههنا نحن اللاعبون والمتفرجون معاً، والكرة هي هذه الحياة التي نعدو متعللين بـ «شوطها»، فإذا بها «تشوطنا» من حيث ندري ولا ندري. وحَذَارِ أن يرتكب أحدنا غلطة الـ «هانس»، فقد يغدو أثراً بعد عين!

ماذا عسى هذا القلم المرتبك أن يأمل والناس يخرجون من هموم عام جرى ليدخلوا في ثياب عام جديد؟ هو يأمل ويتمنّى لأنه مهما تكاثفت الظلمات في حياة الأفراد والجماعات فسيظل نور نجمة بعيدة يغمز لنا: إياكم واليأس، فأنا آتٍ ولو طال المدى! وقد يعيش الناس على أملِ سراب أو أملٍ واهم، لكنهم، لحرصهم على الاستمرار والديمومة والتشبّث بالبقاء، يبعثون أملهم من السّرابيّة الى ما يخالونه الحقيقة. هو سحر الوجود يتلاعب بهم أو يتلاعبون به، والهدف واحد: انتصار الحياة.

ولو كنتُ من الذين ينتشون بالكلمات الكبيرة والشعارات الطنّانة لعقدت الأمنيات يافطات مزدانة بتعابير الخليج والمحيط، ولحشوتُها بمجموعة من اللاءات! لكن المثقف لا يملك سوى التمني والتعلل، ويأتي من بيده الحل والربط ويقول له متجافياً: هذا أوان «نعم» كما تقتضي المصلحة والظروف، فكيف تقول «لا»، ومن سمح لك وأعطاك مهمة التقرير عن المجموع، فنحن الأمة؟ وتتلفت متسائلاً كما تساءل عمر فاخوري بظَرْفه ذات يوم، وقد خرج مع وفد جمعية مكافحة الفاشستية من مقابلة أحد المسؤولين الكبار الذي أمطر أعضاء الوفد بعبارات التقدمية وزايد عليهم بكل ما يحفل قاموسهم من مصطلحات: «هُوَّ نحنَ، نحنَ مين»؟

الأمنيات المتواضعة الصغار أليق بحالنا وأعطف وأحنّ، فلماذا نندب

أنفسنا لجلائل الأمور وتَبِعات التحرير والتوحيد وما شابه. إنَّ لهذه أرباباً يتقنونها ويمتهنونها، أمّا الكاتب فلا بـأس عليـه إن بـثَّ الرجـاء ونشر الرايات، وذلك ضمن السياق، ومع مراعاة الظروف، والأخذ بالحسبان، إذ لا بدّ، وينبغي، وقد يتوجب...!

كنت أوثر، عزيزي القارىء، لو أني فرشت لك في هذه الزاوية حيث تتراكم الأصداف، باقات مـن الورد والريـاحين أهـلّ بها عليـك ونحن على عتبة سنة يقول الكثيرون من العارفين أنها حُبْلى بالمفاجاءات. إذ الكلمات، ونحن على ما نحن فيه، ذبلتْ ولم تعد تُغْني عن خوف أو تنوب عن خفقان. ولو أني أملك موهبة الرسم لملأتها بالنمنمات والآهات والبسمات، علّك تنسى، ولو لهنيهة عابرة، وطأة الأحداث وكابوس القدر الذي اختارنا أحد ميادين لعبته غير البريئة.

وبعد، مَنْ يدري، فلعل العام الجديد يهمس لك هذه العبارة التي تنداح رقراقة في لُجَة اللغة المصرية المحكيّة الآسرة: «أفوتك بعافيه»!

(١٩٨٢)

عناق الأبيض والأسود

نقلت الينا الأخبار أنه حُكم على رجل أبيض وامرأة سوداء في أفريقيا الجنوبية، وذلك لأنهما أقاما علاقة حميمة في ما بينهما، فانتهكا بذلك قانون «الفجور» أو «اللاأخلاقية» المعمول به هناك والذي يحرّم العلاقات الجنسية بين البِيْض والسُّود! تأمّل الاحتيال اللاأخلاقي على الحقوق المدنية والفجور المرتَكَب بحق اللغة والمنطق والإنسان.

كما جاءتنا الأخبار بأن أرتالاً من المثقفين يحاكَمُون في تركيا، والذنب فاضح لا يُغتفر وفيه خروج على الأحكام العُرفية المُزمنة: إنهم قدّموا التماساً يطلبون فيه المزيد من الديمقراطية!

وفي إيرلندا الشمالية، لسنتين خَلَتَا، كان أعضاء من الجيش الجمهوري السرّي يُضربون عن الطعام حتى الموت، احتجاجاً على معاملتهم على أنهم مجرمون عاديّون وليسوا سجناء سياسيين. وهكذا بعد إضراب نيّف على الستين يوماً، ورفضٍ للتدخل الطبّي، ومحاولةٍ يائسة من الثوار لتحريك الضمير الأنكلوسكسوني بغير طائل، مات بوبي ساندز النائب في البرلمان البريطاني، وفرنسيس هيوز، وريموند ماكريش الذي كان في الرابعة والعشرين من عمره، وباتريك أوهارا... وقافلة الحرية لا تعرف للسكون سبيلاً.

وفي الجَعْبة وفي مجرى أيامنا أمثال لا تُحصى على هذا الصراع الذي لا ينتهي ولا هوادة فيه بين التائقين الى التحرر والانعتاق والعاملين على التضييق والكبت وإزهاق الأرواح. إنه الخصام بين الأبيض والأسود، العداوة المستحكمة بين العدل والظلم، التضاد الأبدي بين النور والظلمة، إنه التنافر بين صباح الحرية وليل القهر، الجدل بين السجين والسجّان،

والعراك المذهل بين الرئة التي لا ترضى بغير الهواء النقيّ طريقاً للحياة الكريمة وهؤلاء الذين يعتاشون على نشر المظالم وإشاعة البعوض والمستنقعات في صدور الناس وحلوقهم!

ولكن ما بال هؤلاء العُتاة الظالمين يندسّون بعنصريّتهم القبيحة في كل الأمور والهموم، فتطال حتى مضجع أبيض وسوداء. الألوان في السياسة والمصالح والأهواء غير ما هي عليه في الحياة والأدب والعلاقات الإنسانية ودنيا العِشْق وزفرات المحبّين. هناك خصام واضطهاد وكراهية وأحقاد، وههنا عِناق الأبيض والأسود ووئام وكلام وهُيام. ولكم تغنّى الشعراء العرب في حقل الأدب بالمرأة البيضاء تطلع عن نهار ناصع متألق وينسدل فرعها ليلاً من الشَّعر المسترسل الفاحم الطويل. يقول شوقي: ودخلتُ في ليلين فَرْعك والدُّجَى. لكن المعنى نفسه غابر قد قلّبه الشعراء كثيراً وقديماً، وإن كان أمير الشعراء قد ترك في صياغته لمسة من موهبته. وفي «نهاية الأَرَب» للنُّويري أن شاعراً عانق محبوبته ذات الشعر الغزير المنسكب، فنشرته حولها تتّقي به الحاسدين والعُذّال وأصحاب الملامة:

فكأنني وكأنها وكأنه صُبْحانِ باتا تحت ليلٍ مُطبِقِ.

أنالك الله، أيها القارىء، عطلة منعَّمة تحت خيمة كهذه من الشَّعر الحريري الناعم لا من وَبَر الجِمال الشائك!

وقومنا العرب، ونحن أحفادهم في هذا المَقام، لم تخالج نفوسهم العنصرية في موضوع المرأة والجنس. والشعراء، وفّقهم الله ورعاهم، ما ذكروا الزنجيّات إلا مقرونة أوصافهنّ بالمِسْك والعنبر، فسواد هذين الصِّنْفين وطِيْبهما مختلطان معجونان بسواد الزنجيّات وطيبهنّ. وبلغ الغرام بأحد الشعراء ـ سامحه الله وهداه ـ أنه في حبه لإحدى السوداوات، كما جاء في «عيون الأخبار» لابن قُتَيْبة، ذهب الى القول:

أُحبّ لحبّها السودانَ حتى أُحبّ لحبّها سُوْدَ الكلاب!

وما دامت سوق الزنجيّات رائجة في ذاك الزمن البعيد، وإقبال أجدادنا عليهنّ نَشِط، فلماذا لا تأخذ بهنّ الغَوَاية ويعمدن الى التأنّق

والتفنن في إغراء هذا المسكين الذي يدّعي القوّة والجَبَروت والذي اسمه في دائرة النفوس وفي أرشيف التاريخ آدم؟! وبلغت الغَيْرة من البيضاوات والسمراوات مداها الظريف فإذا بالسوداوات يكتحلن! ولا يعجبنّ أحد فأفانين الحضارة نطالع طرائفها في كل حين عَبْرَ عالمنا المتخلف، المتسوّل لآخر المكتشفات يرتشف لذائذها وهو مضطجع ناعس الطَّرْف سكران.
وإذا كنت بحاجة إلى دليل قاطع مانع فتأمّل هذا الأخ اليماني في جهة الشمال محروماً من الكهرباء والعلم والوعي، محصّناً بالقبليّة والجهل والفقر، وانظر إليه بفضل المساعدات «الشقيقة» يدير مفتاح القيديو ربما برِجْله عِوَضَ يده، ليشاهد في أقصى الصحارى آخر أفلام «السكس»! ودمتم بخير.

(١٩٨٤)

دعاء رمضان

اللهُمّ إني صائم عن الغرور والاستعراض والنَفَش والادّعاء والحرص على الجلوس في الصف الأول، وهي آفات تركب الكثير من مثقفينا أو يركبونها مطيّة الى البروز الزائف والابتسام المصطنع والشُهرة الزائلة. ولو أنهم أخلصوا الصّنيع لأدركوا أن العِلم صِنْو التواضع الجم والطيبة وعشير الجهد الصامت والمعرفة الراسخة. وكم في بلدنا من الذين حملوا اسم الثقافة حِلْية كريمة برّاقة ولم يحملوها صليبَ معاناةٍ وأرقٍ وإبداع. إنهم ينامـون على وسادة محشوّة بالخفّة ونُتْفَةِ علمٍ، وتخالهم مثقفين وهم بحمد الله لا يقرأون، وتحسِبهم يُعملون الفكر وهم سادرون في المناصب والتجارات وعلى البارات (المقفلة مؤقتاً) يقومون بالغارات!

اللهُمَّ إني صائم عن الكَذِب والدَّجْـل والرِّيـاء ومسـح الجوخ ابتغـاء مرضاة بعض ذوي الرُتَب، وتقرّباً منهم ولفّاً ودوراناً حولهم، علّ الحركة تكون فيها البَرَكة ويفوز الناشط بما له خطّط ومن أجله دار ولفّ ونطنط. لقد كنتُ دائماً بالمراتب زاهداً، وسأظل أبتعد عنها إذا قَرُبت مني وأنفر منها إذا ما راودتني عن نفسها. وكيف أبالي بهذه التُرّهات والأضاليل والخَوَازيق وأنا أملك قلماً أستظلّ بملكوته وأستشعر عندما أركن اليه سكينة ومسرّة وحُبُوراً وغِبْطة وراحة ضمير وما لا أدري من الأحاسيس التي تبدو حيالها المناصب والأموال مَتَاعاً ساقطاً وباطل الأباطيل.

اللهُمَّ وحّد الوطنيين والتقدميين في جبهة متراصّة بحيث إذا شكا أحدهم الضَّيْم تداعى له الآخرون بالعَوْن، وإذا فترت هِمّة عُضْو تنادى له سائر الجسم بالمساندة مهما كان البَـوْن. فـالـوطـن والمصير وضَحِـك الأطفال وهدوء العجائز وحليب الأمهات ونشيد الحقول، الماضي المعتّق

والحاضر الواعد والمستقبل الزاهي، خرير الزيت في المعاصر، وتَكْتَكة العصافير في أعلى الصنوبر، والعنب في كرومنا بلون الشَهْد لم يُعْصَر؛ كلها قِيَم وخبرات وبشر وأفكار يتهددها الفناء وصفير الخماسين والخراب الناعق ودُخان يعسعس وجمر يومض ولا خلاص من الكارثة المحدقة إلا بجبهة عريضة تضم الشرفاء من كافة الآراء والفئات والمشارب والأهواء، ولكنهم جميعاً روافد لنهر الوطن العظيم الهادر الذي نغتسل به فنشفى وتنضرُ الخدود بالعافية والعيون بالتماعة العِشْق.

اللهُمَّ أَلهِمْنا حُبّاً ومودِدَة ولا تبذر في صدورنا غِلاًّ وموجِدَة. واعمر قلوبنا بالإخلاص في العمل والصدق في الهدف والصفاء في التعاطي والنُّبْل في الغايات، ولا تجعلها قلوباً مترعة بالحقد والضغينة والدناءة والصَّغار تحرّك أصحابها سفاسف الأمور وتستنهضهم التي واللّتَيّا، في حين يقفون أمام جلائل الأحداث مكتّفي الأذرع مشلولي الإرادة عاجزين مسلوبين. إن حياة لا يملأها إيمان بالإنسان ومجده وقُدُراته واجتراحه ما عزّ وصَعُبَ لهي حياة نباتيّة يدفع مَنْ يحياها الأيام بالأيام ويسوق العمر خَوَاء وضَيَاعاً، إذ ما معنى أن نكون من غير أن نحقق معنى كينونتنا وجوهر وجودنا. والمعنى قائم في الإيمان والعمل، والجوهر يتبلور في العطاء بلا حدود شأن الرهبان المتبتّلين والنُّسّاك المتعبدين.

اللهُمَّ أرِحْنا في هذا الشهر الفَضِيْل وما تلاه من زعيق الرصاص وهدير المدافع، ومن هذه القذائف السّامّة الطائرة في الفضاء الى هنا وهناك والتي تحمل لأبناء شعبنا الدمار والأذيّة والشقاء والهوان. فحتى متى تستمر هذه الحرب الأهلية وتفتك بأعصاب أهلنا بحيث إن الناس في بلادي سيغدون، إذا ما بقي الحال هو الحال ولم يستمع المتعنّتون الى نداء العقل و « مانيفستو » العدالة، مجموعة ضخمة من المعاقين جسدياً وعقلياً يَحْيَون في بيمارستان كبير جداً تبلغ مساحته عشرة آلاف كيلومتر مربّع ونيّف! لقد قال لي طبيب نفساني مرموق ذات يوم من عام ١٩٧٥، وأنا أسأله في ما إذا كان يستقبل حالات كثيرة من الاضطراب العصبي وهل من سبيل إلى معالجتها: « إسمع يا صاحبي، إن الأدوية تتكفل بالمداواة

وتقوم بالمهمة، ونحن ننجح في جُلّ الحالات لأنها عابرة ناشئة عن الأوضاع الصعبة ». ثم أردف بعد هنيهة صمت: « القضية ليست في هذه الحالات الطارئة وإنما في الناس الذين يتماسكون تمشياً مع المسؤوليات العائلية والاجتماعية الملقاة على عواتقهم، حتى اذا ما عمّ السلام وساد الهدوء فإن الكثيرين من هؤلاء يتهافتون عندها من الإعياء الذي اختزنوه ». ولكن كم من وحلٍ ومياهٍ ومآسٍ تدفقت تحت الجسر منذ مطلع هذه الحرب العبثيّة الضَّرُوس الشنعاء؟ فللأعصاب علمياً حدّ يقف عنده التحمُّل، ويبدو أن هذه الذكرى العاشرة في حربنا الجنونية هي سنة القَشّة التي قصمت ظهر البعير وأتلفت أعصاب المواطنين الصابرين، بدليل هذه الكميات المدهشة من الحبوب المهدّئة والمنوّمة والمسكّنة، وربما سنحتاج في يوم قادم إلى المفرّحة والمرقّصة والمفرّجة عن الكَرْب، التي يروج استعمالها وكأنها تنوب في التناول عن القَضَامي الصفراء أو المغلّفة بالسكر والتي كنا نطرب لها ونحن صغار، والدنيا هي غير الدنيا، ورَمَضان غير رمضان الحالي الذي يعود الينا بطبل وزمر وأوركسترا حربية. ونحن، يا ناس، نحنّ إلى الموالد والمدائح النبويّة « مَدَدْ يا رسول الله مَدَدْ »، وإلى أن نسرح في الطرقات حتى أوان السَّحُور. هل تعود تلك الليالي؟ بلى ستعود ما دام في شعبنا إيمان بالتراب ومقاومة باسلة وأسراب بطولات وشهداء يضيؤون الشمس ويشقّون للمستقبل درباً مزهراً.

(١٩٨٤)

الفراشات تغطي لبنان

في زمن التعاسة والإحباط والأماني المشنوقة على بوابة تاريخ نضيّعه كل يوم بفُرقتنا، ولأسباب شتى موضوعية وذاتية وبُنيوية، يغدو الحُلم أكثر من ضرورة. ولقد أغمضت جفني منذ أيام، والليلة لم تكن قذائفيّة، على حُلْم تصوّرته في خيالي، وهو أن لبنان الوطن قد غطّته الفراشات بألوانها الزاهية التي تحيّر الإنسان.

وقد أتيح لي بعض المرات أن أشاهد مجموعات من الفراشات لبعض الهواة، فتأكدت عندها أن فنانينا يحتاجون الى دروس وعِبَر، لأن ألوان لوحاتهم تبدو باهتة ورتيبة بالقياس إلى الألوان التي طالعتني على أجنحة الفراشات ذات الحُجُوم المتباينة. الصحيح أنها أدهشتني، لأني لم أكن أحسب أن الطبيعة تختزن هذا المقدار العجيب من الألوان، وبعضها لا ألفة لعيوننا به البتة. إن الحياة والطبيعة وأحوال البشر مَنْجم من « الطاقة » التي لا خوف من نفادها ذات يوم. « نفط » الكتّاب والفنانين لا يحتاج إلى « أوبك » ترعاه، فهم القيّمون عليه ولا وصاية للمشايخ والحكام والأتباع والحشم. نفط المبدعين للمبدعين هذه المرة. أما نفط العرب فلخزائن غير العرب غالباً، والله المدبّر!

والحُلْم الذي عام في خيالي ليست الهَيُولى مادّته، فقد حلّت في الأسبوع الماضي على بلدة « بخعون »، الملاصقة لسير الضنّيّة من شمال لبنان، أسراب هائلة من الفَرَاش الربيعي الملوّن قُدّرت بالملايين، وحطّت منذ الصباح الباكر على بيوت البلدة وحدائقها. ولم يخشَ الناس منها، فهي فراشات محببة وليست جراداً ملتهماً قاصماً! مع العلم أن بعض أصحاب الشهية في الجزيرة العربية يشوون الجراد ويأكلونه، وفي مكة يطوف الباعة

في مواسمه صائحين: يا جراد يا مشوي!

وكما الإنسان يفتح نافذته ذات صباح شتويّ فيفاجأ بالجبال تكسوها الثلوج لأول مرة، هكذا فلنتصور الفراشات ذات الألف لون ولون تغطي مساحة لبنان! إنها تحطّ فوق قمحةٍ بندقيةٍ لمقاتل متحفّز. وتتواثب فوق متاريس متجهمة تقطع أوصال الوطن وأوردته. وتقف حَيْرى فوق خرائب بيروت الحزينة - آه يا مدينتي، تحطمت أسواقك القديمة ودُفنت في قلوبنا ذكريات عزيزة! وتسترخي الفراشات الفرحة منتشية على نهد ممتلىء لامرأة بيضاء مغناج مستلقية. وتغفو فوق جفون طفل نائم، وعلى كتفيه مَلاّكان. وتتمطى على صفحة كتاب يتحدث عن ثورة كوبا، ذي غلاف جذّاب يحمل صورة لكاسترو بذقنه العَبْلى الكثّة، وقد وقفت عليها فراشة أنيسة...

فراشات بملايين الملايين تطالعك أنّى حوّلت بصرك، فتحجب بالتالي الرؤية على مطلقي المدفعية وصيّادي البشر وتشلّ إرادتهم عن العمل! ولقد يفكر بعض تجار لبنان «الحرابيق»، وما أكثرهم، باهتبال الفرصة السانحة، فيخططون بسرعة وببديهة تجارية متأصلة، في اصطياد هذه الفراشات والقيام بتصديرها وخصوصاً أن بعضها من النوع النادر!

وهذا الحُلم يجرّنا إلى الحديث عن الفراشات، والكلام الآن في يقظة تامة، ومِداده العِلم لا الحُلم. ففي لبنان ١٤٣ نوعاً من الفراشات. بعضها يتناسل ههنا، فهو وطنيّ حامل للهوية. والبعض الآخر وافد، فهو من جنسية قيد الدرس، يهاجر الينا من أقطار هذا الأبيض المالح المتوسط بين القارات. ولو أن موضة لبس النظّارات شائعة في عالم الفراشات لاحتاجت جميعها إليها، لأن في رأس الفراشة زوجاً من العيون، لكن نظرها لا يمتد بعيداً، ومن المعتقد أن الفراشة تستطيع رؤية الألوان!

والتركيب البيولوجي للفراشة هو غير المألوف لدى الإنسان والحيوان. فهي من غير رئتين، ويتم التنفس عندها بواسطة أنابيب دقيقة. كما أنهامن غير شرايين، فيطفو الدم في أنحاء جسمها، لذا فإنّ أيّ جرح تصاب به الفراشة يودي بها.

كنت أُحب أن أسترسل في الكلام عليها، ولكن الحلم عاودني، حُلم ذات ربيع من الحوْل السابع لحرب الأهل، فغطت الفراشات قلمي وأوراقي، ربما هي بادرة فراشيّة احتفاء منها بعيد ميلادي عند الفاتح من حزيران!

(١٩٨١)

إلمسها ولكن بحنان

يُروى أنه في أحد البلدان الذي بلاه الله أو بلا نفسه بالتخلف وقع التأميم على بعض المصانع، فوفد عليه مدير جديد ربما هو معلّم ابتدائي سابق أو عسكري متقاعد. وأراد المدير أن يعيد تنظيم الأمور فسأل عن خبير، وكان إنكليزياً، عمّا يفعله في المصنع، فأجابه عوضين أو محمّدين أو عثمان أو سعدون أو جبّار أنه لا يفعل سوى أن يضع يده على الآلة كل صباح ثم يصفِر، وبعدها بقليل ينصرف متمهّلاً وهو يعبّ بتؤدة غليونه الذي تفوح منه رائحة جذّابة أخّاذة. فوضع المدير هذا الخبير على لائحة الصرف، وخصوصاً أنه كان يتقاضى مرتّباً يبلغ المائتي جنيه. ومرّت أيام قليلة، وإذا بإحدى الآلات تتوقف عن العمل. فهرع المدير وسأل العامل الذي أخبره سابقاً بصنيع الخبير أن يعمد الى تشغيلها، فأقدم العامل على مُلامسة الآلة ثم صَفَرَ، وَفْقَ ما كان يفعل صاحب الغليون المُقال من عمله، ولكنها لم تحرّك ساكناً! واستدار المدير يلتمس النجدة من الخبير الأجنبي، طالباً اليه العودة إلى متابعة العمل، فوافق على أن يتقاضى الآن معاشاً مِقْداره مائتان وخمسون جنيهاً!

ومن هذا القبيل ما حكاه لي صديق أمضى شطراً من عمره في العراق الشقيق. وذلك أن أنابيب نقل البترول قد تعطلت في كركوك، أيام كانت الشركة في أيدي الأجانب من إنكليز وفرنسيين وأميركان. وسعى المهندسون في الشركة إلى إصلاح هذا التوقف في تدفق البترول الخام خلال الأنابيب من غير أن يُفلحوا، علماً بأنه يترتّب على هذا التوقف القسري خسائر مالية فادحة. وكان هناك عامل في الشركة يرقب الموقف فتقدّم من الرئيس وسأله إذا كان يسمح له أن يُصلح ما تعطّل؟ فما كان

من رئيس الشركة البريطاني المتكبّر المضطرب الأعصاب إلا أن استصغر أمره. فسفّهه وطرده. وعندما أعيت الحيلة بالمهندسين الأجانب تذكّر الرئيس أمر هذا العامل ودعا بطلبه. فحضر، لكنه قبل أن يباشر الشغل اشترط الحصول على مائة دينار مكافأة لعمله. فنزل الرئيس طبعاً عند مشيئته مُكرهاً ملهوفاً. فأمسك العامل بمطرقة وانهال بها على الأنابيب بضربة هنا وضربة هناك، فإذا البترول يتدفق من جديد بغزارة. وعندما مدّ يده لقبض الثمن سأل المديرُ العاملَ إنْ لم يكن قد بالغ بمقدار المكافأة، إذ الأمر لم يتعدَّ ضربتين بالمِطرقة، فهل ثمنهما مائة دينار؟ فقال له العامل: ثمن الضربتين نصف دينار، والباقي هو للعقل الذي يعرف أين يضربهما وكيف!

مُلامسة الخبير للآلة شأن ملامسة العاشق لجسد محبوبته، تختصر تاريخاً وخبرة وهُياماً. وضربُ العامل الأنابيبَ ليس تهشيماً لها، وإنما هو أشبه بالطبيب الذي يجسّ جسم مريضه بحثاً عن عِلّته. إنّ مَنْ يُغرم بالعمل اليدوي تراه يؤديه وكأن هناك جاذبية أو تعارفاً سابقاً بينه وبين الآلة، صَغُرت أم كَبُرت، التي يتعاطى وإياها. إنه يفكّكها بثقة ويعيد تركيبها، بعد اكتشاف ما دهمها من عَطَل، بانشراح ونشوة وشَغَف. ليس عبثاً أنه في لغتنا نقول: رجل صَنَاع، أي حاذق الصنعة ماهر اليدين. وما أقدمتُ مرة على عمل يدويّ بسيط إلا وحسِبت وصدق مني الظنّ أني سأضيف الى ما يحتاج الى التصليح خللاً جديداً! في حين عندما أُمسك القلم وبين يديّ ورق أبيض مستطيل أنيس يخالجني شعور أني أجري الآن في حَلْبتي، ولا خوف على الوقت مهما طال، ولا خَشْية على خطأ أو تقصير أقع فيهما، فأنا كفيل بهما مع الصبر والأناة بالشطب مرة ومرة وبإعادة تركيب الجملة وتقويم العبارة، حتى ولو استحالت الصفحة حقلاً مقلوباً من أقصاه الى أقصاه! وكم هو شائق دراسة مسوَّدات الكُتّاب للاطلاع على طريقتهم في التحبير، فليست هذه عمليات تشويه وتمثيل وحرث عشوائي وإنما هي عمليات خلق وتجميل ومعاناة.

إن الأمر ليس وقفاً على مجرد التعلّم والإتقان، فهو الى ذلك يحتاج إلى

البراعة وإلى هذا الشيء الخبيء في حنايا هذا الشخص أو ذاك، وهو ما نسمّيه الموهبة أو الرَّغْبة أو الميْل. كُثر هم الذين يتعلمون العزف على الآلات الموسيقية، ولكن قِلّة منهم هي التي تتعامل مع هذه الآلات الصمّاء بحنان وتواصل وانجذاب. والحنائن يُنطقون الآلة عن خباياها وإمكاناتها والأسرار، شأن ما فعلته العازفة الألمانية على البيانو «إريكا فريزر» هذا الأسبوع خلال الحفلة التي قدّمتها في معهد «غوته». فشكراً لأناملها العاشقة.

إن الموهبة تتبدى في كل ميدان بلا استثناء، عقلياً كان أم يدوياً، ويدخل المطبخ طبعاً في هذا النطاق، وهل هناك حضارة لم تلج هذه الرَّدْهة العزيزة على بطون البشر؟ لقد تعلّم أحدهم على صديقه تحضير وجبة طعام بعد أن ذاقها لديه واستلذّ طعمها، فتاقت نفسه أو معدته الى طبخها بيده. وأيّ صعوبة في ذلك وهو قد سجّل المقادير ودقّق في كيفية التحضير؟ لكنه ما أن فعل حتى خاب أمله، فعاد إلى صديقه عاتباً مستفسراً متعجباً! فقال له: يا صاحبي كل ما فعلته صحيح ومضبوط، لكنك نسيت شيئاً واحداً أفسد عليك طبختك. فأسرع المتعلم يسأل بشوق: وما هو؟ فقال له الصديق وهو يبتسم من جانب فمه: النَّفَس!

وتحضُرُني في هذا الصدد قِصّةٌ للكاتب الأرمني آفديك إيسّاحقيان (١٨٧٥ ـ ١٩٥٧) تدور حول فَخّاريّ كان يشتغل عنده عامل في صنع الفَخّار. وبعد مضيّ زمن رغب هذا العامل أن يستقلّ عن معلمه، ففاتحه بالأمر وقال له إنه سيفتتح «فاخورته» بعيداً عنه مسيرة ثلاثة أيام، لئلا يكون سبب ضرر أو منافسة لمن له الأيادي البيضاء في إتقانه المهنة. فرحّب المعلم بالأمر ودعا له بالتوفيق. وعقب ستة أشهر عاد هذا العامل إلى معلمه يشكو له ضيق الحال، ويستفسر منه عن عِلّة كساد عمله وبوار كدّه، وهو الذي يتقن مهنته وَفْقَ ما كسب من خبرة لديه. فأعطاه المعلم طيناً وماء ودعاه الى الشغل، فانخرط العامل في السعي، ثم حمل الخليط الطينيّ الى آلة ليسوّي منه جرّة او إبريقاً، ووضع ما صنعه في الشمس، وأخيراً حمله إلى الفرن. وسأل العامل إذا كان أخطأ في مسعاه، وهل من

أمر ناقص أغفله؟ فأجاب معلمه: هناك شيء يسير أقوم به عادة ولم تأتِ عليه، وهو أنني قبل أن أُدخل صنيعي طيّ الفرن أنفخ فيه بفمي!

الملامسة، الحنان، النَّفَس، النَّفخ، كلمات تُفضي الى حقيقة ذاتية خطيرة لولاها لكان الناس يحملون فوق أكتافهم رؤوساً متشابهة تماثل الثوب الأوحد الشائع في الصين الشعبية!

(١٩٨٤)

الأمل والعمل

إننا نقول: لولا الأمل لخاب العمل. ولكن زيت الأمل يتناقص في قرارة أيامنا، والمصباح الذي يغذّيه هذا الزيت ينِزّ فتيله ضوءاً باهتاً مريضاً. ولست، والحمد لله قبلُ وبعدُ، سياسياً محترفاً فأغدق على الناس سلال الوعود ومواسم القطاف، بحيث يتبدّى أن النصر معقود لواؤه غداً! فكم نحن بمسيس الحاجة الى أن نخفف من غُلواء وعودنا وتقديراتنا، لئلا يقع الجمهور في الإحباط تلو الآخر. يقولون: إن التعبئة وما شابه من المفردات تملي تحريض الناس ورفع درجة استعدادهم. ولكن حقن البشر بغير الحقائق والآفاق المنفتحة عليها، تؤدي عاجلاً أم آجلاً الى استرخاء عام في عضلاتهم وإلى هبوط في معنوياتهم، إذ في آخر الأمر لا يصحّ كما نقول أيضاً إلاّ الصحيح.

وهذا الصحيح هو نتاج وقائع موصولة النَّسَب بالتّيْس، أي أنها عنيدة لا يجدي معها تدليس أو تمويه. وكما أنك إذا لجأت إلى شيء من الكذب مع ابنك، متعللاً بإصلاحه أو فراراً من النهوض بالمسؤولية الملقاة على عاتقك بشأن تنشئته، فأنت واقع لا محالة في أزمـة ثقة مع فِلذة كبدك تلحق الضرر بك وبه، كذلك فإن الهيئات الاجتماعية عندما تبشّر الناس بالجنة العاجلة ثم تقعد عن الوفاء بما تزيّن للمواطنين من عهود ووعود فكأنها ترتكب جُرم الذي يعطي شيكات من دون رصيد يعوّل عليه!

في إحدى الحملات الانتخابية الأخيرة أو قبلها ـ ولا عَجَب في النسيان فقد بَعُدَ العهد في بلدنا بيننا وبين ما يسمّى شكلاً انتخابات، ومن قائل إن النوّاب الحاليين سيشرّعون قانوناً يبقون بموجبه نوّاباً مدى الحياة، أليس هناك رؤساء مدى الحياة فلماذا لا يسري عليهم تقليد

كهذا ؟ في هذه الانتخابات المذكورة كان أحد المرشحين يخوض المعركة في هالة من الدعاية، بحيث تحسب أن المنافسة بينه وبين مزاحمه سيكون مآلها ما حلّ ذات يوم في الجاهلية بين داحِس والغَبْراء من سباق حامي الوطيس، أو أن الأمر سيكون وقفاً بين المرشحَيْن على فرق زهيد في الأصوات شبيه في لغة جماعة سباق «پارك بيروت» الذي استعاد نشاطه بما يعبّرون عنه من مزاحمة بين فرسي الرهان المتقدمتين في طليعة الشوط: الفرق بينهما منْخر! ثم ينجلي غبار المعركة بين المرشحَيْن المتنافسين، فإذا بالغزال يسرح بينهما في الشُّقّة الفاصلة، ولم يكن الحال حكاية منْخر طال أم قصر. فيفوز أحدهما بالغالبية المطلقة لأصوات مواطنيه، في حين ينال المرشح الآخر صاحب الدعاية المفرطة في التفاؤل بضع مئات من الأصوات فقط! نسيتُ أن أذكر أن هذا المرشح الأخير كان يمثّل حزباً تقدمياً!

التفاؤل مرض كنت أعانيه، لكن التجاريب خففت من هذه الحُمّى. لا يعني هذا أني لم أعد متفائلاً، وإلاّ لما بقي مغزى للحياة نحياها وندفع في لُجّتها أيامنا، أو كما قال الخليفة المأمون: «من أراد أن يطيب عيشه فليدفع الأيام بالأيام». لقد أصبحتُ متفائلاً عن دراية لا عن غريزة. لم يعد تفاؤلاً عفوياً، وإنما هو تفاؤل مدروس تتحكم فيه الحسابات. فحال تفاؤلي إذا قيس بالتفاؤل العفويّ، كحال الزهور الاصطناعية التي أكرهها بجانب الزهور الطبيعية. هذه فَوْح وتلك منظر، هذه قلب يلهج ويندفق وتلك عقل يحسُب ويحتاط. صار تفاؤلي مع الأسف زهرة اصطناعية.

وما أحرانا أن نأخذ أنفسنا بالحذر والحَيْطة عندما نخاطب الجماهير فلا نغدق عليها الوعود بغير حساب، فهي عُدّتنا وكَنْزنا الباقي لمجابهة الصعاب. إن أقوالنا الموجّهة اليها إذا ما كانت مجّانيّة فسوف نحصد شجرة زيتون يابسة عَجْفاء. لم تعد الخَطَابة فعل حماسة فقط، وإنما هي توجيه رفيع المستوى ومسؤولية جسيمة ومدرسة لتربية المواطنين على فهم الأحداث في ضوء العقل والمنطق والخطّة أو ما ندعوه الستراتيجيا. إن الجيل الحاضر مدين بالكثير في تربيته السياسية لجمال عبدالناصر، لقد

كان طرازاً مستجداً في فن الخَطَابة، ولم تبقَ معه على شاكلة خُطَب مصطفى النحّاس زعيم الوفد أو على نَسَق خُطَب مصطفى كامل الفارس الرومانسي للحزب الوطني.

وبمناسبة ذكر مصطفى كامل فإن أُمّي ـ طيّب الله ثراها فقد كانت مثالاً نادراً في الطيبة والصدق ـ قد رغبت إليّ ذات عام مضى وانقضى عليه زمن طويل، أن تشاهد فيلماً كان معروضاً على الشاشة حول حياة مصطفى كامل وجهاده. وذهبنا الى ساحة الشهداء وجلسنا في الصالة نستمع تقريباً من أول الفيلم السينمائي حتى آخره الى سلسلة رتيبة من الخُطَب لا ينضب لها مَعين. كان فيلماً تعيساً من حيث الإخراج، وكنا نحن تعساء أيضاً بسبب مشاهدته. على أن حبّنا لكامل ظلّ ناصعاً، فالوفاء الوطني لا يقابَل إلاّ بمثيله. وعندما شاهدتُ جنازة ناصر المهيبة في فيلم يوسف شاهين «عودة الابن الضّال» أمسيت كتلة هالعة دامعة!

ليت إعلامنا الوطني يتّسق في الخطو والجهر مع أعمالنا، فلا يحدث عندها شبه طلاق أحياناً أو عدم انسجام غالباً بين الأمل الإعلامي والعمل الحاصل على الطبيعة. وإلاّ فنحن واقعون لا محالة في حفرة المثل العاميّ الوارد علينا من أرض الكِنانة: إسمع كلامك إصّدّق، أشوف فعالك إتعجّب! ولا نتكلم على الإعلام الرسمي فمن يسمعه لا يصدّق بعدها أن هناك حرباً أهليّة في لبنان قاربت في عمرها السبع سنوات! فجُلّ ما تبثّه إذاعتنا مبنيّ على إيديولوجيّة خرِفة مفادها أن لبنان بألف خير، فهو محبّة واخضرار ووئام ووفاق وغيرها من المفردات الكاذبة. إنه «التكاذب الوطني» ـ على حدّ تعبير المفكّر الشهيد كمال جنبلاط، هذا الذي كان كبيراً وكان لبنان لقياسه وطموحه صغيراً.

(١٩٨١)

وردة تعبر الحدود

دعتني مناسبة سارّة ـ وربّ سائلٍ يقطع عليّ حبل الكلام ليقول محتجّاً ساخطاً: وأين هي اليومَ هذه المناسبات السارّة؟ وأجيب: نهر الحياة دفّاق، ولولا قوة البقاء والعمل والاستمرار التي يختزنها شعبنا بسخاء وحيوية عجيبين لكان الهلاك نصيبنا منذ زمن والاندثار مآلنا. الصمود في بلدنا كلمة ذات مدلول يقف عنده الغرباء مشدوهين، ولستُ ههنا أصدر عن كلام خطابي أو رومنطيقي أو غنائي، فالحقيقة الناصعة أن ما توالى علينا من أحداث جسام ونكبات وفتَن وصدامات كانت كفيلة كلها بأن تهدّ الجبال وتفتّت كَبِد الصخر. ولا شك أننا الآن متعبون، ويستبد بنا الإرهاق، ونحلم بنوم هادىء مديد وكأننا لم نم منذ زمن طويل! هذا صحيح، ولكن الصحيح أيضاً أن المعركة عَبْرَ الجنوب تطبع حربنا الأهلية «الأخوية» بوجهة جديدة، وتنقل القتال من مستنقع الطائفية الآسن والمنحى العبثي الجنوني الى هوية التحرير والإطلال على صباح الوطن الحقيقي لا الوهمي. ولن يتم هذا التحول بهدوء وتلقائياً ومن غير خراب وضحايا ودموع. فهناك تداخل مأساوي بين الداخل الأهلي والخارج العدائي. ولعبة الأيدي الممدودة من هنا إلى هناك على الحدود وعَبْرها ستحرق الأصابع، وقد أحرقتها بالفعل. فمتى يعتبر أصحاب لعبة الأيدي، أم أن التاريخ كما يقول بعض المفكرين أعطى درساً واحداً وهو أنْ لا أحد يتّعظ بدروسه؟!

الحرب الأهلية لم نخترعها نحن، فهي مفروضة على خبزنا وغدنا. ولعل الآية الكريمة تعبّر أصدق تعبير وأوفاه عن حالنا: «وقد ابتغوا الفتنة من قبل، وقلبوا لك الأمور، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون».

وأمر الوطن هو من أمر الله. فأين المفر مما نحن فيه؟ ولن يكون العلاج بإدارة الظهر للحرب، أو البكاء على الأحوال مع تغييب أسس الصراع، أو المساواة بين القاتل والقتيل. الحل كامن في التطلع جنوباً وتحويل التذابح الطائفي الى معركة تقرير مصير وورشة بناء مستقبلي على قاعدة العَلْمانية. وهذا الشعار العلمي القائم في العَلمانية تداولته فئة من اللبنانيين طويلاً وزايدت به على الآخرين ناعية عليهم التخلف والجمود وحتى الطائفية، حتى إذا ما اقتنع هؤلاء «الآخرون» بصوابية الشعار انقلب المطبّلون له في أمسِ إلى مخاصمين له اليوم، بدعوى جديدة مبتكرة وهو أن العَلمانية سبيل لهؤلاء الآخرين بغية الوصول الى السلطة والاستيلاء على مقاليدها! إذا كان التقاسم الطائفي بليّة لبنان المزمنة ونافذته المشرعة على الحروب الأهلية المتجددة، وهذه حقيقة لا مجال إلى المماحكة في صحتها المطلقة. ثم إذا كانت العَلمانية، بما تتيح من إمكانات فعلية لتشييد دولة حديثة منزّهة عن الأهواء المذهبية إلى حد كبير، ليست حلاً علمياً ودواء شافياً لأمراضنا الخبيثة. فأين يكمن البديل العصري، بالله عليكم، ومن أيّ مستودع احتكاري للأدوية يأتي العلاج، وهل المرض المعاصر يُدارى بمداواة عائدة إلى العصور الوسطى والقرون الخالية؟! نفهم تماماً أن إصلاح الديمقراطية يكون بمزيد من الديمقراطية، أما الطائفية فلا يكون إصلاحها بالمزيد منها وعلى طريقة النُّواسيّ الشهيرة «وداوني بالتي كانت هي الدّاء»!

هناك فارق عظيم بين أن يموت الإنسان مجاناً وبغير جدوى وبلا منطق أو قناعة أو إيمان أو هدف، وبين أن يستشعر أن التضحية سيكون لها ما بعدها ولن تسقط في فراغ وصمت وضَيَاع! وأبطال المقاومة في الجنوب وأهلنا هناك يُلقون كل مطلع فجر علينا جميعاً، نحن ههنا في بيروت خطوط التماس والضاحية المدمّرة، وطرابلس المشتبكة من حين إلى آخر بين القبّة وبعل محسن، والبِقاع، والكورة، وعلى كل قرية وحي وزاروب؛ يُلقون علينا الدرس الكبير أنهم عرفوا السر الأعظم في خلاص الأوطان وهو مقارعة العدو بالحجارة والرصاص والقنابل وكل ما تصل له الأيدي حتى يتحرر التراب ويعود إلى أهله. أبطال الجنوب، أطفال الجنوب، نساء

الجنوب. يصدق فيهم ما قاله مرسيل كاشان في وصف غبريبل بيري الذي أعدمه الجلاّدون الهتلريون في فرنسا عام ١٩٤٢: «إنهم لم ينتظروا النهار حتى يؤمنوا بالنور».

لم أسمع في حياتي بصمت مدوٍ كهذا الصمت الرائع المنبعث من شباب «جمّول» (جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية). إنهم يقاتلون بصمت، ويُعتقلون بصمت، ويُجرحون بصمت، ويستشهدون بصمت ولا أجمل ولا أجلّ ولا أروع! «جمّول» ليست واجهة للدعاية والطبل والزمر والخداع والمتاجرة وشتى صنوف الكذب الذي أضحى لكثرته خبز أيامنا الكالحة نتغذى به ونستحيل أكاذيب تمشي وعقولاً مستعارة! «جمّول» تنفض عن عيوننا اليأس وعن كاهلنا الوَنَى وعن قلوبنا رعشة الخوف والاغتراب ولامعنى الزمن، إنها تؤسس فينا مواطنين لا طوائفَ وشعباً لا مذاهبَ وشمساً وقمحاً ومرجَ فضائل. ولكأني بها وهي في تصميمها وعنادها وديمومتها في مقاتلة العدو الصهيوني المجرم الجبان، وذلك ليلَ نهارَ بلا هوادة، قد عناها شاعرنا أبو تـمّام في ما قاله ذات يوم غابر، في رثاء القائد محمد بن حميد الطُّوسي الطائي زمن المأمون:

فأثبـتَ في مُستنقـع الموتِ رِجْلَـهُ وقال لها: من تحتِ أخمصِكِ الحَشْرُ.

بلى هو الجنوب مستنقع الموت للإسرائيليين ويوم الحَشْر، فعند كل زاوية من الجنوب ينبت مقاتل، وخلف كل صخرة تكمن بندقية، وفي كل قرية مهرجان للشهادة والعطاء. وقد نسي القارىء حتماً أني بدأت مقالي بالقول: «دعتني مناسبة سارّة»، ثم انقطع الكلام بسائل مفترَض يحتجّ عليّ، ولو درى لأفسح لي في المجال لأن هذه المناسبة السارّة كان الجنوب أيضاً داخلاً فيها على الخط. فلقد قصدتُ بائع الأزهار أتزوّد من عنده بباقة ورد من اللون الذي أهواه وهو الزهريّ بلون العشْق بلون الحُلْم، وعثرت على ضالّتي وحسبت أنها واردة علينا من هولندا أو الشقيقة مصر، وكانت المفاجأة أنها وُرُود من الجنوب، «أبو الأسود» موطِنها ومشتلها. ولكن الجنوب تطوّقه الحواجز والأسلاك والأحقاد، فكيف وصلت الينا؟ أصحابها يحملونها في كرتونات عبر الشِعاب، حتى إذا ما

وصلوا بها إلى نقطة على «الحدود» الجديدة دفعوا بها إلى مَنْ ينقلها إلى العاصمة. وآمُلُ ألاّ أكون قد أفشيت سراً! أخذتُ الباقة مزهواً بها فَرِحاً كالأطفال، ومشيت بها يستخفّني السرور الغامر، ومضيت بها إلى الأصدقاء وكأني أحمل لهم وديعة غالية وهدية لا تماثلها هدية. تصوّروا، ورود من الجنوب تخترق الموانع والأسلاك والحِراب. ويا أهلنا في الجنوب، ستدق الساعة لا ريب فيها، وسيأتي اليوم الذي لو جمعنا فيه كل ورود الكون نذهب بها اليكم فلن تكون كافية لتكريم شهدائنا هناك، بُناة الوطن والغد.

(١٩٨٤)

الرجراج

أحد مستوردي الجوخ في بلدنا يبشّر الجمهور اللبناني بوصول الساتان الأبيض الرجراج الإيرلندي إلى محلاته العامرة. ولا يملك قارىء هذا الإعلان إلا أن يردد، والحال هي الحال والشقاء يلفّ حياتنا كالسّوار من المِعْصم، المثل الشعبي المأثور: الناس بالناس والقطّه بالنفاس! ولكن مهلاً أيها القارىء، فهذا الساتان الرجراج ربما لا يعنيك أمره لا من قريب أو بعيد كما لا يعنيني، غير أن الطبقة المترفة ذات الأرداف الرجراجة والأقفية المزّازة قد تكون في انتظار له ليكسو «عُرْيها» وفي لهفة اليه ليُشبع «جوعها» الى الحرائر واللطائف. فالعُرْي نسبيّ ومختلف بين طبقة وأخرى، وكذلك حال الجوع. هناك من يبحث عن لقمة يسدّ بها جوعه المستتر، وهناك من يعتبر التخمة نقيضاً للجوع. على أي حال ما كتبنا ههنا لنبحث في الطبقات، فهي قديمة منذ نشأ التبادل ودارت الصفقات. وإنما مدار كلامنا على هذا الرجراج، فليس هو بمقصور على الساتان المفرح الوارد علينا من إيرلندا ـ فكّ الله عُقدة حربها الأهلية وكسا لياليها بالساتان الأبيض الذي تتكرم به علينا ـ بل إن كل ما يشيع في حياتنا اللبنانية منذ سنوات يبدو رجراجاً. ولو لم يكن الأمر على هذا المنوال التعيس الكئيب لما أتيح لي أن أقرأ منذ أيام على باب إحدى الصيدليّات هذا الإعلان وكأنه «الأوكازيون»: قياس الضغط بخمس ليرات! كما تجود إحدى الإذاعات وبالمجّان بهذه الوصفة الطبية المدهشة: إذا كنت تشعر بالضيق، عزيزي العامل، إضحك! وشرّ البليّة ما يُضحك. ولأسبوع خلا، وخلال أحوال أمنية رجراجة، كنت أمشي كما كان يمشي أمين الريحاني في حدائق نيويورك مُتَبَهْلِلاً، أي على غير هدى

وغاية محددة، ولكن مع الفارق الكبير أن بيروت بغير حدائق وأرصفتها وأطراف شوارعها طافحة حالياً بالقُمامة المكدّسة ومزروعة بالخوازيق من كل حجم ولون. فكان أن وقع نظري في إحدى الواجهات على هذه العبارة: ثَقْب الأُذن بدون ألم! فترامت عندها إلى خاطري حكاية الرجل الذي نام وعروسه في الليلة الأولى فاكتشف أن الطريق، كما كان يصرخ بسَذَاجة الإذاعي شريف الأخَوي إبّان حرب السنتين، سالكة آمنة! فسكت على مضض، وفي اليوم التالي شاهد هذا الرجل زوجته وهي تحاول ثقب أُذنيها، فقال لها: يا فاجرة، ما هو أهل للثقب في بيت زوجك تقومين به وأنت لدى أهلك، وما هو جدير بأن يُثقب لدى أهلك تنبرين له ههنا!

لستَ في حاجة لأن ترجرج أحداً في بلدنا، فكل امرىء يكاد يكون رجراجاً في حركة تلقائية كأن نابضاً خفياً يفعل في كيانه وأعصابه. من المألوف أن كل مهنة تُكسب صاحبها ردود فعل معيّنة، فلا عجب أن تتبين لدى ضارب على الآلة الكاتبة توتراً في الأصابع، وعند حذّاء وهو يحاول أن يقنعك بصواب رأيه حركةَ يدٍ هابطة صاعدة، ولَدُنَ معلّم لغة تشدداً حنبلياً أو «دوغمائيّة» مَرَضية! وحربنا الأهلية الفريدة التي سندخل بوساطتها مُتحف التاريخ بلا ريب، لأنها تتكشف فينا عن مخلوقات عجيبة، قد أبرزت في جملتنا العصبية ومحتوى حديثنا ومفاصل حوارنا قاموساً نفسانياً متجدداً لعل أبرز مصطلح فيه هو الرجرجة. وكيف لا نصاب بها وأنا أكتب هذا المقال اضطررت إلى التوقف عن تدبيجه عدة مرات بسبب القصف «الأخوي» المتبادل بين شرقستان وغربستان، إذ من الحب ما قتل! ولا تسل كم يعاني مواطنونا من اضطراب وخفقان يتسللان الى العقول والأعصاب والأفئدة، ولعل خير مهنة مدرار تتاجر بها كلبناني غدّار أن تستورد بوسائلك الخاصة، وما أكثرها هذه الأيام، الأدوية، بخاصة المهدّئة والمنوّمة، فهي «البونبون» الشائع لمكافحة الرجرجة.

للمفاهيم في بلاد الله الواسعة المتحضرة تحديدات يتوافق عليها الناس وتعمل بها المؤسسات وتنهض على ركائزها الأوطان. وهذه المفاهيم هي موضع تنازع بين الطبقات، كلٌّ منها تشدّ اللِّحاف إلى جانبها وَفْقَ إيديولوجيتها ومصالحها التاريخية. ولكن يبقى الوضوح مخيّماً والقطع حاسماً، فإذا بمفاهيم الوطنية والحقوق النقابية وديمقراطية التعليم والحريات العامة، إلى غير ذلك من دعائم الدولة الحديثة، مصونة إلى حد بعيد، فهي من مسلّمات النزاع السياسي والتجاذب الحزبي. وذلك لأن هذه الدول نفضت عن كاهلها الغيبيات والحكم الفردي الاستبدادي، وكان الإنتاج فيها يعوّل على الزراعة، وعلى المطر الذي يأتي وقد لا يأتي، وعلى المواسم التي قد تكون وفيرة أو شحيحة، وعلى الفلاّح الذي تظل عيونه مشدودة إلى السماء لئلا تبخل على زرعه بالماء المحيي. وعرفت هذه الدول بعدها الصناعة وما تتطلب من انضباط ودقة وتِقْنيّة، فغدا المجتمع عصرياً، علميّ الطابَع، وشاعت في أرجائه النظرة العَلْمانية. فأين نحن من هذا كله والرجرجة في المفاهيم تتبدى سيّدة الموقف؟

منذ تأسس هذا الوطن الصغير، الحافل من غير غرور وأساطير بالإمكانات المبدعة، والإنجازات والمفاهيم والقيم تتلبّس، عَبْرَ طوائفه ومذاهبه وقبائله وعشائره، لَبُوساً يتبدل بين موقف وآخر، بين منطقة ومنطقة، بين يوم وثانٍ... فالغرائز لا يمكن أن تبني وطناً حقيقياً دائماً، ولا أقول سَرْمدياً لأن هذا حشو كلام، فالوطن يُبنى باستمرار وعندما يضيّعه حكّامه، كما حلّ بنا، فهو يصبح شبه وطن ويسقط في دوّامة الفوضى والضَّيَاع والتفتيت، فأين عندها السَّرْمَد والخلود؟ داؤنا الطائفية ودواؤنا العَلمانية، وما عدا ذلك فالج ما تعالج. وكلما أوغل بعضنا في الطائفية والمذهبية وربما وصلنا بعونه تعالى إلى الطرائقية نسبة إلى الطرائق الصوفية، وكلما تشبّث بعضنا بماضٍ ورديّ آفل وعهود سعيدة مغلوطة، انحدر لبنان مع هذا التشبّث وذاك الإيغال إلى هاوية الجحيم والخراب الشامل. وربّ قائل عندها: طُوبى للمهاجرين إلى مونتريال والفارّين إلى

أسوج والحالّين ربوع وادي اللوار، فقد كسبوا وطناً جديداً ولم يخسروا وطناً قديماً، لأن هذا الوطن الهارب من بين ضلوعهم الهالعة أضحى خرائب و «غيتوات» وشعلة نيران وأحقادٍ ومحافظات رجراجة بمن فوقها، فهم يقيمون فيها اليوم ويغادرونها غداً، والمتحاربون يومهم خمر وغدهم أمر وانتقام ومزيد من الضحايا والغرائز الساطعة!

ولكن مهما توالى على هذا الوطن من مآسٍ وآثام، ومهما اشتدت به الأزمات والنكبات، فلن استبدل بمدنه وأحيائه وأزقّته وبشره وشطآنه وقراه وحكاياه إقامة رخيّة ناعسة فوق أرض فنلنديّة أو أميركية. ولا أقول هذا الكلام بفورة حماسة وطنية أو بدافع الموعظة والإرشاد، فلغيري قدّاس الأحد أو خطبة الجمعة. ولكنه التعلّق الطبيعي ببُقعة نمت اماني في مساكبها، وكلما ادلهمّت بها الليالي ازددت انشداداً إلى يومٍ يأتيها الفرج ويزغرد فيها الفرح. وخلال الحصار الإسرائيلي لعاصمة أبت الذل والاغتصاب جاءني الهاتف من باريس ملهوفاً يسأل عني، وكان جوابي: ولماذا الرحيل؟ أقيم بين جدران عاصمتي الرائعة عن قناعة وتصميم. وأقول الآن مجدداً: ولماذا الرحيل؟ أليست المقاومة الوطنية اللبنانية هي العُضْو غير المعطوب في جسد الكيان المسمّى لبنان؟ هذا الشعب يخترق دائماً الظلام بقواه الحيّة ويعلو عندها على الجراح النازفة والتناقضات المميتة. فلماذا لا ننتسب إلى الغد ونكتسب بطاقة الوطن الوليد؟ لماذا لا نخرج من نَفَق العقل الرجراج والأفكار المهتزة والنفوس الزائفة؟ لماذا لا نطّرح الطائفية وبَنَاتها ونعتنق المقاومة والعَلمانية سبيلاً أوحد للخلاص والتوحيد والمستقبل؟ وما ننادي به ليس «روشتة»، إنه درس الحاضر والتاريخ، فهلاّ اعتبرنا أم ستظل الرجرجة تأكل من أعصابنا ومصيرنا؟

(١٩٨٥)

السلطة والكركول وفن التنجيم

وتزاحم الأولاد، والجراءة مِلء الجوانح والعمر، على الحيّة الصغيرة فروّعوها بدل أن تروّعهم وقضوا عليها شر قضاء، وها هي مرميّة عند طرف حوض الأزهار لا حراك فيها ولا نأمة. ومررت بها - وهي مَيْتة طبعاً، إذ لا صداقة تصلني بالحيّات أو هواية، وليس في شجرة عائلتنا أيّ أصول هندية ولم أعثر فيها حتى الآن على مهراجا هربان متدلٍ من أحد غصونها بحيث آنس بالحيّات بحكم صلة الدم والنَّسَب - ونظرتُ اليها غير معجب ولا ولهان، فتقدّم مني أحد «الحكماء» من أبناء الشعب وقال من خلف نظّاراته السميكة، وهو سميك الجسم أيضاً، بحيث إنّ السَّماكة مقوّم شائع فيه يأخذه من أقطاره جيعاً: هذه الحيّة لم تمت! وتعجّب أحد الأولاد من هذا القول، فمدّ رِجْله ببراءة يحرّك بها الحيّة، فبدت هامدة تالفة. ولكن هذا التقليب بالرِّجْل الولاّدية لم يزحزح «الحكيم» عمّا اختزن في صدره السميك من رأي ومعتَقَد، إذ تابع ما بدأ من قول فأشار أن هذه الحيّة لا تموت حقيقة حتى يطلع النجم!

ولم أدر ما يقصد بكلمة «حقيقة»، ولم أعبأ بسؤاله عن الفرق بين الحقيقة والمجاز ههنا، إذ خشيتُ أن يزداد تفاصحاً وسَمَاكة والدنيا حر قائظ بحيث يهوى الإنسان أن يصير سمكة أو أن يعيش، كما هو حال الناس في بعض غابات أفريقيا، عُرْياناً غير خَجِلٍ! ومن أين يأتي الخَجَل فقد أثبت علم الاجتماع أن هؤلاء الناس الأفارقة يدهمهم الخجل فقط عندما يتسترون ببعض الثياب، إذ الوضع الفطري عندهم أن يكونوا عُرَاة. فالثياب من ابتداع الحضارة، أما التنويع التجاري الموسمي المتأنق في الثياب فهو من مبتكرات البورجوازية لا ستر الله لها عورة ولا وقاها من

ثورة! ونحن طبعاً لا ننادي بالعودة إلى الحياة الطبيعية ولا ندعو إلى إطلاق موضة العُرْي، وإنما هو الحر الكافر دعانا إلى هذا النَّزَق والاستطراد. وللمناسبة فإن أوروبا تُسرع الخطى نحو العُرْي، إذ بات من المعتاد على الشاطىء أن تظهر السابحات مرتديات «مايّو» قد طارت قطعته العليا، أما السفلى فما زالت موجودة، ولو بشكل رمزيّ، وذلك حتى تاريخ كتابة هذه السطور! مع العلم أنه لسنوات خَلَتْ خرجت إحدى الإنكليزيات على الشاطىء وهي مطلقة الصدر حرّة النهدين فقبضت عليها شرطة الأخلاق! وقد أخبرتني إحدى اللبنانيات أنها وجدت حَرَجاً عندما احتفظت بثوب السباحة بقطعتيه عند الشاطىء الفرنسي، نظراً لأن منظرها كان غير مألوف، فهي كاسية بين عاريات، ومحاصَرَة بين موج مُزبد يضطرب فوق الماء وموج عارٍ يضطرب فوق الصدور، أما البنات الصغيرات فكنّ ربّي كما خلقتني! وهذا كله يوضح أن الأخلاق نسبيّة، وأن ما هو مباح وحلال وطبيعي في مجتمع معيّن قد يبدو على النقيض من ذلك تماماً في مجتمع آخر تَبَعاً لظروفه وأوضاعه وتقاليده. ولله في خلقه شؤون، والنساء عندنا ما زلن متسترات محافظات متشددات بالقياس إلى الأوروبيات، فحمداً لله وشكراً أن العسل ما زال في خوابي الحِشْمة محفوظاً مَصُوناً.

ونعود إلى الرجل الذي رفض أن تكون الحيّة مَيْتة، برغم أنها منتهية، ما دام أن النجم لم يطلع بعدُ، فهذا ضرب من التفكير ننعته بالخرافي ونحتجّ حانقين على أنه ما زال موجوداً بيننا. ولكننا لو تمهّلنا في الحكم ودققنا في أمور حياتنا لعثرنا على أشباهٍ كثيرة تشي بالتفكير الغيبي والتفاسير التي لا يربطها بالمنطق والعقلانية أيّ رابط سويّ مقبول. ولن نستفيض في الحديث عن قارئات الفنجان حيث يشاهدن من خلاله صُرّة مالٍ تأتي وقد لا تأتي أو سهماً عند المفترق يشير الى مفاجأة سارّة ليس واضحاً بعدُ فحواها. ولن نسترسل في الكلام على العيون الحاسدة، فنحن من هواة العيون الخضراء الجميلة لكأنها جُزُر السياحة والاستجمام. ولن يذهب بنا الاعتقاد أنه ما زال بين ظهرانَيْنا من يظن أن الزلازل مبعثها أن

الأرض يحملها ثور فينقلها من قرن إلى قرن. ولا نخال أن إنساناً يعيش في عصرنا الحالي، المذهل بما احتوى من اختراعات وإنجازات وسباحة في الفضاء، ما زال يأخذ حديث النجوم، المعهود في كثير من المجلات مع الأسف، مأخذ الجِد. فهذه الأبراج ليست من صنع فلكيّ دجّال، وإنما هي تسلية كتابية يقوم بها بعض المحررين الصَّحَفيين من باب اللهو وتزجية الوقت. فالتنجيم بالأساس ينتسب إلى خرافات إغريقية قديمة العهد ألّهت النجوم، ثم جعلت السماء أبراجاً مرتبطة بأسماء حيوانات. ولن نتحدث عن التعاويذ والأحجبة والرُّقى، وما إلى هناك من تَرِكة اجتماعية مدهشة من الكتابة وفك الكتابة، فهي حرب سحرية خفيّة ينبذها العقل الحديث.

فالتفكير الخرافي في مرحلة ماضية من تاريخ البشرية ربما كان ضرورة، ومحاولة تفسيرية بدائية للكون، وسعياً من النفوس القلقة لكي تستعيد طمأنينتها أمام مظاهر الكون المستعصية عليها. ضرب المَنْدَل ودعوة الأرواح وحرق البخور وتعليق الأكفّ على أبواب البيوت وقراءة الطالع، وعشرات غيرها من الأساليب التي كانت شائعة في حياة الناس العادية في الزمن الغابر، هي أمور استمدّت مشروعيتها من مجابهة الإنسان المجهول الذي يؤرّقه ويبدو له طلسماً. بيد أن العلم، خصوصاً في أيامنا الحافلة بالخيال، لكنه الخيالُ العلمي العقلي وليس الخيالَ الميتولوجي الوهمي، قد فك الرَّصد وقضى على الخرافة. لذا يبدو نافراً أن يتمتع إنسان ما بكل المكتشفات العصرية التي لا حدود لها ثم يعمِد الى تفسيرات غيبية لا تتفق بأي حال مع الحقائق العلمية التي يُقرّ بها ويحيا مكتسباتها ويتنعّم بها.

وهذا التفكير الخرافي قد نجد له تفسيراً في حياتنا الاجتماعية الراهنة على أساس أنه من الترسّبات الفاشية التي لا يمكن الإقلاع عنها ما دامت الأمّية بكل معانيها موفورة في بيئتنا، وما دام التخلف يأخذ بتصرفاتنا وردود فعلنا، وما دامت الثقافة العلمية ليست بعدُ خبز حياتنا، ثم إن الموضوع كله يحتاج إلى زمن وليس سبيلَهُ إلى الحل وصفةٌ أو فرمان. ولكن ماذا نقول عن هذا التفكير الخرافي عندما نجده منتشراً على لسان بعض

كبار المسؤولين السياسيين في بلدنا التعيس. قد تتصوّر أيها القارىء، بعد قدحٍ للذهن وإمعان في التفكّر ومعاناة، أن الحرب الأهلية في لبنان تكمن وراءها أسباب تاريخية وطائفية وطبقية واجتماعية وإقليمية ودولية... ولكن الأمر، لو دريتَ، أهون من ذلك بكثير، فالآلاف المؤلّفة من القتلى والجرحى والمخطوفين والمعذّبين والمشردين والمهجَّرين والمعاقين والعاطلين، ونأمل أن لا يكون للموضوع بقيّة وملحق وحاشية وتتمة، هؤلاء الضحايا من أهلنا بالآلاف المؤلّفة على مدار السنوات العشر وعَبْرَ فصول السنة ليسوا، في تصريح لبعض كبار المسؤولين، سوى سحابة صيف طويل وانتهت!

وقد تسأل أيها القارىء بطيبة وسَذَاجة، أجارك الله ومتّعك بالعقل والعافية، عمّن قتل أولئك الضحايا وذبحهم وشوّه أجسادهم وتفنن في التنكيل بهم، فيأتي الجواب حاسماً باتراً: إنّ كل ما جرى مدسوس على اللبنانيين، لأن ما حصل غريب عنا، غريب عن شعبنا، غريب عن أصالتنا، غريب عن قِيَمنا... وهكذا فالدعوى إذا ما قامت سهلة الطرح قريبة المنال، فالفاعل هو سحابة الصيف الطويل التي ظللتنا خلال الخريف والشتاء والربيع والصيف، وكان يختبىء طيّها مجهولون غرباء وشياطين حمر ليسوا من حَمَلَة هويّتنا الوطنية، إذ ما دخلنا نحن الذين تأبى أصالتنا وشِيَمنا الذبح والتقتيل. أما الميليشيات من كل نوع فقد خُيِّل للبعض رؤيتهم، إذ لم يقم بعدُ الدليل القاطع على وجودهم، وإذا صادف أن ظهر بعضهم في صورٍ عبر الصحافة والتلفاز فالفحص الدقيق أثبت أن سِحَن هؤلاء تنبىء بأنهم من مواطني سري لانكا والفيليبّين، وقد استغلوا طيبة شعبنا وحُسْن ضيافته فعمدوا إلى تكوين عصابات سلب ونهب وفعلوا في بلادنا العذراء ما فعلوا، مما يأباه الضمير الحي والمواطنية الصادقة...

البورجوازية الهجينة في بلدنا عِوَضَ أن ترفع عَلَمَ العقلانية والتنوير، كما هو مأمول تاريخياً، فإنها تلجأ إلى راية التأدّب والأساطير والخرافة، وتبحث في الغمام والسحاب عن علل الأحداث، وترفع الأكاذيب إلى مرتبة الحقائق، وتستر التناقضات المستحكمة بجُمَل تفاؤلية واهمة. فإذا ما

افتُتح مؤتمر لوزان الشهير ، على سبيل المثال ، وانهمرت الأمطار يومذاك في بيروت ، عمّمت البورجوازية عبر وسائل إعلامها أن المؤتمر صائر الى النجاح ، ونعلم أيّ فَلاَح وصل اليه المؤتمر وأيّ وحلٍ طائفيٍّ انهمر في آخره! وإذا ما طالب بعضهم بتثبيت هويّة لبنان العربيـة ـ لئلا يطمـع الأتراك أو الأكراد أو الجَرْكَس وربما السريان ذات يوم بهذا البلد ما دام أنه فاقد الهويّة ـ أجاب بعض أقطاب البورجوازية الحاكمة أن الأمر محتاج إلى لجنة من الدّارسين والعلماء ودكاترة التاريخ لتتأكد أن لبنان عربيّ وليس منغولياً أو بشكيرياً (نسبة إلى بشكيريا أحد الأصقاع في جمهوريات الاتحاد السوفياتي). والى أن تتألف اللجنة وتنتهي من دراساتها العلمية ، وربما المخْبرية ، فإن كل لبناني هو عربيّ مؤقت أو عربيّ قيد الدرس أو عربيّ على لائحة الانتظار . في حين أن المقاومة الوطنية اللبنانية تجهَر يومياً مع كل طلقة وقذيفة أن اللبنانيين بين أكثر شعوب الأمة العربية ولاء للعروبة بالممارسة والموقف ، وأنهم لم ينتظروا اللجنة الموعودة ليتعرفوا على هويّتهم العربية الأصيلة. فربما انتهت مداولات اللجنة الى نَهْيهم عن مقـاومـة الاحتلال ، لأنها إذا مـا استـأنسـت بـأبحاث المطـران إغناطيوس رعد فستعثر على صلات قُربى لا يرقى إليها شـك بين العِبرانيّين والفينيقيين ، وبالتالي فهل يقاوم الأخ أخاه أو ابن عمّه أم أنه يقاسمه العيش واللقمة والماء ، خصوصاً إذا كان ماء لِيْطانياً نَميْراً ؟!

مَنْ يعوّل على بورجوازية طائفية عقيمة ، شأن بورجوازيتنا التي قادت الشعب الى المجزرة ثم غسلت أيديها من المسؤولية وأوكلت الأمر الى السحاب والأمطار واللجان التاريخية المخترعة ، فهو واصلٌ الى ما حلّ بي ذات صيف سابق على الحرب الأهلية عندما استفقت في يوم مشمس وضّاء في بحمدون لأجد أن سيارتي قد سُرقت ، وكانت سَرقة السيارات قد شرعت تشيع في لبنـان. فما العمـل وكيـف أتـدبّـر الحال؟ ذهبـتُ إلى الكركول وعرضت عليهم الأمر ، فقام أحد الدركيين بتسجيل الواقعة ، وعندما سألته عن التدابير التي سيتخذونها لحماية المواطن الذي هو أنا وعن الوقت المفتَرَض الذي سأسترد بعده سيارتي العزيزة ، شاعت أسارير بسّامة

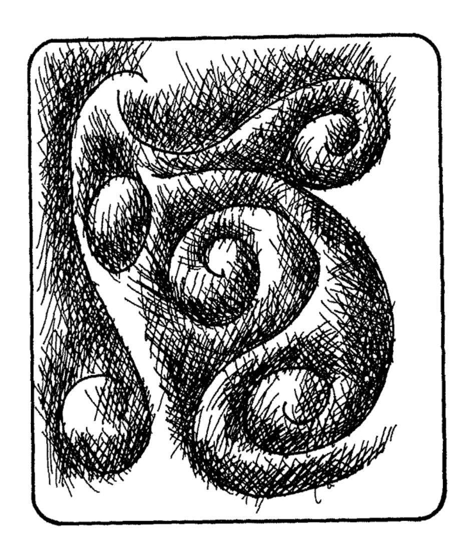
على وجهه لم تخفف من مُصابي وإنما أفهمتني أن الموضوع موكول إلى الله وأن الكركول قد قام بواجبه على أتمّ وجه إذ سجّل الحادثة بأمانة كما رويتها. وعندما قمت أجرجر أقدامي خائباً لمحت في وجه الدركي شيئاً يريد أن يُفضي به إليّ، فتمهّلت وإذا به يقترب مني ويقول لي إنه سيقدّم إليّ نصيحة قد تأكد من مصداقيتها وهي كفيلة باستعادتي السيارة، ثم أشار عليّ باسم منجّم في بيروت وأعطاني عنوانه! الناس على دين ملوكهم، فإذا كانت البورجوازية تعتمد منطق الخرافة والأساطير فلماذا لا تعوّل سلطتها التنفيذية وأداتها القمعية على الرمل والمنجّمين؟!

(١٩٨٤)



٢

الحبّ يُدعى "نهديّة"



سوناته على البيانو

والليل ساجٍ والخاطر كلوحة الماء صافٍ والنجوم نواظر، تنهلّ في البال كلمسة الندى، كرفيف أمل، كافترار ثغر، كشهقة صدر خجول. يا لها من قامة خضراء ظليلة، وهذا الوجه الهادئ كأن الشمس سكنته ولمّا تزل تسطع في حناياه، وهذه العيون طاب للعسل أن يعوم فيها ويفـوح ابتساماً وهمساً. وتدخل في المخيّلة وتلهو، وتعبر القلب وتمضي، وهو مشغف تَعِب وهي ينحدر عن أكتافها شال وورد لكأنه يتهاطل يعبَق يزهو. وجبهتها هل كُتب له عليها آيةٌ لا فِكاك منها، وشعرها الضارب إلى الحمرة، المرتفع بكبرياء وحنان، أتُراه سيقرأ في جداوله مطالع فيض ربيعيّ؟

تُطلّ والخَفَر سِرْبال رقيق يحفّ بها لكأنه هالة، غيمة، قبّعة، وأنتَ منه متأمّل تخشى الكلام لئلا تجرّح صمته تهتِك حضوره تقشّعَ قُدسيّته. وتجلس فتخالها راهبة في معبد، ترشح السكينة حواليها، ويضيء السكون بألقِ كلامها المنسكبِ رقّة. هل هي تحكي؟ أم أنه جدول رقراق، يدخل في الجوانح، يتسلل إلى شغاف القلب، يطفح في مسامّ الجسم فيحيله كتلة غِبْطة وزورق حُبُور. يا لَلْعذوبة عندما تغدو علامة لإنسان، عنواناً مرجعاً مرادفاً، اسماً حركيّاً في السر والعلن، من صفاته الحُسْنى. تبارك هذا الجمال كم يوزّع من هبات، كم يُشيع من طمأنينة. حريريّة هي أنامله، مزهرة هـي ضحكـاتـه الخافتـة، وحضـوره حَبَـق وأُرجـوان وبسمـة «دو فُنشيّة» خالدة.

(١٩٨٤)

من دفتر «نهدية»

(١) الانتظار

هذا اليوم كيف إلى نسيانه من سبيل؟ يوم الجمعة، تباركتَ، في الثالث والعشرين، إثر عيد الاستقلال الشهير، ساعة اللُّقيا لكأنها عفوية، غير أنها تحتشد بالانتظار الطويل الذي دام أشهراً. كنت أُدير عينيّ فيها وهي كالخفقة تتوارى، متى يأتي رسول مسعف يقدّم أحدنا إلى الآخر فتتساقط الستائر وينبض الحديث وفي القلب لواعج وعلى اللسان دفق أمنيات وحبل كلام؟ كنت أراها وتراني، غريبين يعرف أحدهما الآخر بلحظ العيون، ويسأل أحدهما عن الآخر بصمت، وعلى جمر الأيام تتّقد لهفة اللقاء وينسرب جدول سرّيّ بين قلبينا. ثم تصافحنا في مناسبة اجتماعية والتقينا، وبغير مقدّمات جرى الحديث بيننا رقراقاً. حديث اثنين يعرف أحدهما الآخر، وكلام لا كُلفة فيه ولا اصطناع، لكأننا كنا صديقين قديمين ثم عدنا واجتمعنا.

الجمعة ٢٣ / ١١ / ٨٤

(٢) ابنة الماء

حملتُ إليها شعلة خضراء من الزرع نَبَتَ في هولندا وما درى أن سيكون بطاقة ودّ ورسالة تحيّة على شاطىء بيروت. بعد عهد طويل مضى ومكابدة عتيقة أدركتُ من جديد كم يتعذّب العاشقون وكيف يعيشون الساعات لهفة وانتظاراً وشوقاً يعُسّ وقلقاً لذيذاً واسترسالاً هائماً مع

الأحلام والرؤى. وجلسنا في السيارة على كورنيش شبه خال. فالطقس في الخارج بارد قارس والهواء يحمل رذاذ البحر إلى وجوهنا، لكن الدفء العاطفي كان يشتعل بيننا. وفتحتْ النافذة، فخففت عليها من أذى الشتاء. غير أنها لم تبالِ، فهي تحب المطر والهواء، هي ابنة الماء وربيبة الرمال والشطآن، عيونها العسلية تنعكس فيها زرقة ساحلنا، وبَشَرتها البيضاء أُشربت رحيق شمسنا، أما قلبها فأنّى لي أن أعرف ما يخبّىء؟ ستخبرني الليالي هل لي نصيب حنون لولوج مكمن أسرارها، أم لعلّي سأعود محطّم القلب خائباً قد كتبت أشواقي على الماء فمحاها زَبَد الأيام؟!

الخميس ٢٩ / ١١ / ٨٤

(٣) النبع

تُرى لماذا أحتفظ بيوميّات الهوى هذه ضمن ملفّ زهريّ؟ أهو لون الحب والعِشْق وخَفَقان الفؤاد وتمتمات الوله، أم لأني شاهدتها ترتدي فستاناً مخططاً بالأبيض والزهري وتسلّقت أشواقي على ممرات تلفّ جسداً تاه قلبي في حناياه ومنحدراته؟ ما نصيبي، وأنا المضنى، من هذا الزهر، وهذه القامة المزهرة، وهذه العلاقة الربيعية، ونحن في خريف يخترق العمر والمفاصل والأحوال والزمن؟ أهو على رأي المثل «زهر بموّت قهر»، أم بعث للآمال الدفينة وعود إلى أيام البراءة ورسوّ عند مرفأ الأمان من طول إبحار ومعاناة وعذابات وعواصف؟ تُرى أيتفجّر النبع بين يديّ وقد أمضيت الليالي بحثاً عن مكمنه؟

الأحد ٢ / ١٢ / ٨٤

(٤) اللوز الحزين

صديقتي «نهديّة» نامت عند «باتر». أوقفها الجندي الإسرائيلي

ونظر إليها بعينين من زجاج! أنّى له أن يفهم أن جزءاً من روحها تلاشى هناك عند الشاطىء الرمليّ جنوب الوطن؟ كان البرد قارساً مثلجاً، وقلبها مشتتاً ضائعاً، والجندي واقفاً، والزمن رصاصياً، والشجر غابة من الرماح العارية. قلبها الملتاع يقفز فوق الوديان طائراً إلى حِضْن أُمّ تخشّبت أصابعها وهي تشير إليها من بعيد بتلويحة الوداع. وتجمّد العسل في العيون الدامعة. والجندي واقف، والسلاح شاهد، والشجر ناظر، والمرحلة قهر واحتلال وحدود نقّالة! وعندما مضيت إليها أواسيها خبّأت كفّي في كفّها. كان برد «باتر» ما زال راقداً في أطرافها يغفو مفتّح العينين، والأسى معلّقاً على جسمها كزهر اللوز الحزين، وابتسامة شاحبة تطفو فوق وجه أتلمس فيه خريطة أيامي الآتيات.

الأحد ١٦ / ١٢ / ٨٤

(٥) الانتفاضة

كان في عيونها حزن ومرجان وكبرياء. كان الأسى يخترقها، لكن الدمع منها غالٍ وضنين. لقد اختارت طريقاً صعباً لم تألف المرأة الشرقية سلوكه إلا عَبْرَ الانتفاضة. وهي قد انتفضت ورمت بأغلال الطاعة والحياة التقليدية الخانعة وخرجت على «بيت الدُّمية» ـ كما في مسرحية «إبسن»! وجاءها الحصار، الحصار من أقرب الناس إليها، من الذين اقتسمت وإياهم اللقمة واللعبة والأمل والبراءة. إذ كيف يُنجزون عملية الإخضاع والتطبيع والتأديب؟ خالوا أن الحصار العاطفي والمالي يتكفل بالمهمة. وتقول لي في لهجة حاسمة: إنه حصار طبقي! بلى، يا عزيزتي، هو كذلك إذ مَنْ يَدُسْ قيم البورجوازية يغدُ عدوّها اللدود ولو كان بالأمس من أخصّ أركانها. هي قوانين المجتمع المتصارع اجتماعياً ولا مجال فيه لمرحمة تصدر عن قريب أو حبيب. المال عصب هذا المجتمع ومعبوده، هو واحد أحد، فمن رفض ربوبيته فقد تهرطق وتزندق! وأرنو إلى وجهها

الطافح باللوعة والعزّة، هي نـورا «إبسـن» وكلارا «أراغـون»، هـي «المرأة الجديدة» التي حَلَم بها قاسم أمين، هي منتدى الروح. وتقول لي: ماذا بعد؟ فأجيبها لأقلب صفحة الأسى وأقرع جرس المزاح والحبور، وقد طالت غمامة الكآبة وهي تظللنا: أنا على رأي المغنّي بصوته الصادح ـ وأعلم أنها تكره الغناء ـ «عشقتِ روحَكْ، وعِشق الروح ما لوش نهاية». ويزهر على ثغرها طيف ابتسامة حزينة!

الأحد ٢٣ / ١٢ / ٨٤

(٦) نجمتان

قُبُلاتها الورديّة ما برحت على ثيابي، وأنّى أتلفّتُ في الغرفـة الدافئـة تطالعني بسمتها الفريدة وعناقها الحميم وجسمها الملفوف الذي لم تزيّفه العطورات المجلوبة. هذا الفم الرقيق العذب لا أملّ من سكب روحي في ثناياه، وأنحني عليه وتنحني عليّ وندخل بعضاً في بعضٍ كما الموجة في الموجة. ويضيع رأسي تائهاً في جسد هو الحنان ورائحة الأرض وملح البحر ونكهة السعتر، وعلى فمي مذاق وأريج وفي دمي طمأنينة وغبطة. ومن وَسَط البهجة والنشوة ترفع عنقها الجميل وتسحب بَشَرتها الحريرية وتقول لي ملهوفة: أحقاً تحبّني؟ وأضحك لهذا السؤال وتصيبها العدوى فتضحك، ونسبح في تمتمات ووشـوشـات. وتمضي السـاعـات ونجمتـان لامعتان تضيئان صدر السماء، وعلى صدرها تزهـر وردتـان جـوريّتـان ترضعان في حلك العَتَمة من النور السرّيّ لهذين القنديلين البعيدين!

الأحد ١٧ / ٢ / ٨٥

(٧) الحصار

أحاصرها بالحب، تحاصرني بالهُيام، واللقاء ما بيننا عناق وزفرات

وعتاب. فما درتْ يوماً أن العِشْق يعذّب ويضني ويستبد على هذا النحو بمن يكابده، فهو أنّى توجه وكيفما فكّر تطالعه أطياف وذكريات ورفيف قبلات هامسة وشَغَف. وعلى صدرها كان أرنبان أبيضان يلهوان يتقاربان يتكوّران يتفلّتان يهتزان اهتزاز الأماني العطاش في دمي الكئيب. وأكتشف أن بياضاً زاهياً يكسو هذين الأرنبين اللاهيين، ويعلوهما وشمان زهريّان كأنهما عصارة أقحوانتين نضرتين تركهما الربيع ومضى مزهوّاً بصنيعه، وظلتا ههنا أبداً متفتحتين عابقتين بالعِطر والحليب!

الجمعة ٨/٣/٨٥

(١٩٨٥)

الكيمياء العجيبة

نهديـة، يا ابنة الرمل والأزرق وشطـآن المحـال. على شفتيـكِ، على خصريكِ، على كل رفّة من جسمك الألق، ينهلّ وعد ويهمي هُيام. ما بال هذا الإهاب تخطّى السنين وداس ناموسها، فهو يرشـح بـاليـاسمين ويلتمع بالنضارة والندى ويتفتح عن ألف زرّ واحتمال.

نهديّة، يا ابنة الأبيض والأسود. أبيضُ كزبد البحر، كإطلالة الـمُنى، كشهقة العاشق، كفجر الوطن الآتي؛ يتسربل بالأسود، يختبىء وراءه، يخفي سرّه، يلفّ جسده البهيّ. وبينهما يسري شوق وتنبت أحاسيس، حب يغلي وتنداح ابتهالات.

نهديّة، أيها البركان المطفأ. حديثك في كلماته آثار شَهْد ووَجْد، وصوتك يساقط عليّ رُطَباً وفُلاًّ، وفي نبراتـك صُـراخ النـاقمين وهَمْس المتلهفين. ولكن حَذَارِ من هذا المِعْجَن الدافىء الحنون حينما يُشعله مسّ من غرور أو عارض من هذا البركان ينسف من الذهن الحالم نهديّة وتفور أعصاب!

نهديّة، يا آية العِشْق ويا سورة الكَرَوان. في صوتك الناعس خميرة من غَزَل، وفي قوامك المعافى يغفو جمال خريفيّ فاتن. ولو دَقَقْتِ قلبي لما أجابك إلا الوَلَه وتمتمات ورجاء. فكُفّي عن الظنون والتفاسير والأهواء، كُفّي عن لعبة الرجم والوساوس والضَّيَاع. هذا قلبي ينادي فيتردد صداه كما الصوت في الوديان: نهديّة!

وتجول في صدري صُوَر وتنعقد آمال وتطفر فراشات. كم هي عجيبة كيمياء الحب! واحدة عَبْرَ الملايين، ومع ذلك تتبدى مع كل شخصين يلتقيان كشفاً جديداً وتجربة لكأنها لا سابق لها في تاريخ الإنسان ومغامرة فريدة. لهفة الكائن إلى مَنْ يُكمله ويتوحّد به ويتماوج، لمسةٌ حانية ويَنْبوع

خبيء بين الأضلاع، ولولا هذا الماء لغدت الحياة رمالاً في عدد الخيبات والنكسات.

ويلوح على الورق، وأنا أخط جَمَراتي، وجه نهديّة تترقرق في أساريره بسمة مضياف، فأهتف: زهَر اللوز في جبالنا. ويعوم في عينيها عسل ربيعيّ لا ينقضي له فوح ولا رُواء. وترفع عُنُقها معتزّة تيّاهة، فيغيب عن صفحة الورق وجه نهديّة ويملأها عُنُق أملسُ تعلوه شامة كالنجم الشارد كالتسبيحة كالآهة الحَيْرى كالهمسة. سبحان من نقش بالريشة الحالمة ومسح بلون الأعماق.

مطالعة وجه نهديّة إبحار في تخاريم الحُلْم ونُقْلة من شيئيّة الأيام وتكرارها وعقمها وسأمها إلى مهرجان من الإطلالة الخجلى والحضور المشتهى، فإذا بالساعات تتوالى ولا من يدري بجريانها، فزمن الحب له تقويمه ومناسكه. لماذا تطعنين هذه الهنيهات اللامتناهية بالشك والظنون، لماذا؟

نهديّة عاشقة للأزهار والقمر، تستطلع ثغره وتبحث عن ألوانها وأشكالها. وتنظر إلى الرياحين لكأنها تحدّثها تنبش عن خباياها تهيم بنمنماتها وتعجب. وترمق القمر وترنو ساهمة، تُرضعه أمانيّها الغاليات وتكشف له أحزانها العالقات كسمك بين شباك الصياد يحاول الإفلات ولا طريق. تُرى لماذا يغمر الدنيا حزن دفين، لماذا؟

عندما تضحك نهديّة تترقرق فوق البحيرة رعشة، تتلفّت نجمة، يسرح طفل نحو البراري، يطفر ماء بين الأعشاب اليابسة. ولكن كيف السبيل إلى إضحاكها، وهي المشدودة الأوتار؟ تخال الحياة درساً وسعياً وواجبات. ومَنْ قال لا، لكنها إلى ذلك كله مكابدة وبحث عن الجمال وضحك من الأعماق وغناء. ومن لم يعرف الضحك لا يدرك معنى البكاء، ومن لم يعانق الماء لا يدخل في سر الجفاف. نهديّة، يا ابنة الشط والبوح وترنيمة اللقاء، الحياة تناديكِ بكفّ ممدودة فاركضي نحوها ولا تخافي بصدر متلهف خافق موّاج.

(١٩٨٥)

الياسمين الحزين

الياسمين يهطل على درابـزيـن شرفتي، وأمسـك بـه مقلّبـاً إيّـاه بين أصابعي، مجمّعاً فوحه في قعر كفّي اليمنى المضمومة، وأدنيه من أنفي متحسساً عبيره السرّي وكلمته الودودة، فأحسب أنه غير ما ألِفته دائماً، حردان زعلان قد أضرب عن سلامه المعهود، وكأن مروحته البيضاء الطريّة الملمس المخمّسة الخدود استحالت أدمعاً حبيسة وأشواقاً حَيْرى.

بلى قد فهمت، هو يسأل عن غادته الأثيرة التي يتطلع دائماً إلى أن يرقد هانئاً في حِضْنها، أن يرتمي عاشقاً على شعرها، أن يتسلل ملهوفاً إلى المنحدر النديّ بين الأكمتين المكتنزتين فتنة وحناناً وعسلاً. هواه مع البياض صِنْوه، بحيث إذا انطرح فوقه غاب عن العين، فتغدو البَشَرة الحليبيّة ياسميناً ويصير الياسمين بَشَرة تختلج وتتنفس وتحتقن بالرِّغاب.

ويتلفّت إليّ الياسمين شاكياً عاتباً: أين نهديّة؟ وما درى أن أنيني لا يوازي أبداً حزنه العابر، وأن ما أعاني لا يقاس البتة بعتابه وصدوده! كل ما في غرفتي ينظر إليّ، لكأنه يتّهمني وهو يسألني عنها: الكتب على الرفوف بأحجامها وألوانها وهمومها، الدفاتر والأوراق والقُصَاصـات الحُبْلى بالأرَق والحنين، الملفّـات حيـث تتراكم الطمـوحـات والمشـاريـع ومخططات الصحو المشمسة، التماثيل العاجيّة التي كانت تشاهد بحرارة وصمت أمسيات الوَلَه فتكاد تهتز شَغَفاً وتنتفض لمرأى الجمال، الساعة العتيقة الزاهية عرفت مع نهديّة زمناً غير زمانها الآليّ الرتيب أضحت تكتكتها أُنساً وملامسة، الوسائد والمساند تتذكر عهداً معطّراً بالفتون والوشوشات، مَنْفَضة السكاير كانت تزدحم فيهـا الأعْقـاب ورمـادهـا أنفاس مشتعلة وهنيهات مضيئة وفرح...

غياب نهديّة أفول للياسمين المزغرد الهَيْمان. أصبح الذبول يسرع إليه،

يزحف على بياضه، فهو يتهاوى يصدأ ينكمش يتكوّم. فَقَدَ مغزى شذاه وتفتحه، تلاشى من حياته معنى السرور الذي يستشعره عندما يلتفّ حول مِعْصم نهديّة أو يغفو فوق عنقها وسنان نعسان. لم يدلف إلى دنيانا ويتساقط ليلتقطه الصِّبْية يلهون به ويتراشقون، أو يضعه الرجال في جيوبهم ثم ينسونه غافلين عن لطف محضره الناصع. الياسمين يبحث عن زند امرأة حنون، عن أنفاسها الدافئة تختلط بفوحه وبوحه، عن صدرها المتكبر يختال فوقه ويزداد بياضاً متألقاً على بياض. الياسمين سيدة غيور، ولم تكن تُرضيه سوى نهديّة بجمالها الجهير وغرورها الخبيء.

بعض الأسماء يُكتب بحبر القلم، وبعضها نخطّه بقصب المزامير، واسم نهديّة مِداده الياسمين.

(١٩٨٥)

تحت شجرة الانتظار

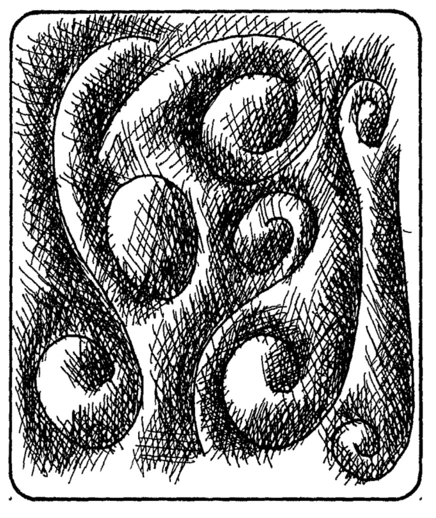
في هدأة الليل على حين غِرّة تهلّ عليّ عيناها العسليتان اللتان تطفو فوقهما بسمة، ثم تختفيان وتبقى البسمة اللامعة معلّقة تشع في الظلمة كأنها نجمة. هو طيف «نهديّة» يقرع صحائف أرَقي، يعاود التغلغل في شغاف حبّي المعتّق المضيّع، ينصبّ في كأسي فوّارة حنين وذكريات. يا لهذه المخلوقة جمعت في إهابها النقيضين: رقة بادية كعطر الورد الجُوْري، كرفّة فراشة حَيْرى؛ وقسوة مستَرة تتفجر فجأة من حيث لا يخامرك خاطر ولا يدور في خَلَدك حساب. كيف يتعايش الماء والنار في دَنٍّ واحد، كيف يأتلف العناق والبغضاء في حِضْن رحيب؟ تراها تتحدث بلسان المفكرين، فتصغي إلى خرير الحكمة وتقول في نفسك: ما أبدع الجمال والحكمة عندما يتّحدان. فلا الجمال منظر لا غير، ولا الحكمة أقوال عِجاف. ثم كمن لسعتها نحلة أو عشق زَنْدها البضّ دبّور تستحيل بغير سابق إنذار إلى كتلة حَرَد، فتظلّل نضارتها غيمة من النقمة والأسى. الوسواس الخنّاس يهدهدها، فلا تملك له مقاومة ولا صداً، فإذا الأمر عندها أمران والرأي رأيان وللقضية أوجه خفيّة لا تخطر على بال ولا تمرّ بذهن إنسيّ. وأنّى للنصيحة تسديها إليها، وكل شيء في دنيانا غلا ثمنه وارتفعت قيمته، ما خلا النصيحة، كانت في الزمن الغابر تساوي جَمَلاً وغدت مع نهديّة تساوي حَرَداً. إنها آنذاك ليست المرأة المعتدّة بنفسها، التيّاهة بما صنعت خِلَلَ حياتها متجاوزة عصر الجواري، بل إنها عندها طفلة تكسّر ألعابها، فتاة تلهو بتسوية فستانها الجديد ترفع الكتفين برؤوس أناملها وتضع يديها فوق خصرها وترفع عنقها مختالة! ماذا أقول؟ في كلٍّ منا يلهو طفل وديع يقفز فَرِحاً أمام ناظرنا ساعة نشوة أو انتصار. وفي جسم نهديّة الريّان يكمن شبح امرأة ثانية ناقمة ساخطة

مستشرسة، وما أن يُستثار هذا الشبح حتى يغطي واجهة صاحبته ويتربّع ناطقاً باسمها شأن صنم بوذيّ عبوس!

في صفاء الليل، والليل لباس، يهبط على أصابعي تنهّدها، يخترق لحمي تبسّمها، يجول في دمي نهداها، وأجدني كتلة ملتهبة من الشوق واللهفات. ذات مرة فتحتُ عُلبتي البريدية فشممت رشح أناملها عَبْرَ بطاقة دعوة لمناسبة اجتماعية تتصل بها، وكانت على حضوري حريصة، ولكني أخلفت الموعد اضطراراً ولم أذهب. أيّ دَفْق من السعادة سيجيش في صدري إذا ما فتحتُ هذه العُلبة ذات يوم وتنسّمت من جديد خطو قدميها. إن عيوني اللاهثة لمترقبة، وأنا، تحت شجرة الانتظار، شاهر قلبيَ راية غرام.

(١٩٨٦)


٣
أَرَقٌ وَوَرَق



الورق الحنون

هناك علاقة وجدانية بيني وبين الورق، شبيهة بالعلاقة الحميمة القائمة بين الفنان ولوحة القماش البيضاء التي يسكب عليها تلاوين عاطفته. وإذا كان الفنان يمرر أصابع كفّه على القماش لعله أن يعقد بهذا صلة من «الحنيّة» بينهما، فإن الكاتب غالباً ما يحدّق في سماء الورق المنطرح مستسلماً أمامه!

وكما الناس أجناس فالورق كذلك صنوف وأنواع. فهناك «الكلاسه»، ويُستعمل في الكاتالوغات الفنية الرائعة وفي الأعمال الأدبية البديعة التي غدت كلاسيكية فصارت خبز البشرية ولا أطيب. ولكل ورق تِقْنيّته، فالورق الكلاسه يتطلب وقت تصنيعه ضغطاً عند تمريره بين الأسطوانات الفولاذية، لكي يخرج أملسَ لمّاعاً. وعندما أجد هذا النوع من الورق الفاخر تهدره بعض الحكومات والمؤسسات على بعض مجلات تافهة ونشرات إعلامية سقيمة يتملكني الغضب، ولكنني لا أجرؤ على تمزيقها رأفة بورقها، فله حُرمته عندي!

إن تمزيق الورق عادة بشعة ذميمة. فأنت عندما تحوّل الورقة المطبوعة بعناية إلى كتلة مرصوصة مجعودة بين فكّي قبضتك أو حينما تقطّعها إرْباً إرْباً وأنت ممسك بها بين الإبهامين والسبّابتين، إنما ترمي الساعات التي بُذلت من أجل كتابتها والساعات التي صُرفت في سبيل صفّها وطباعتها. وقد تكون هذه الورقة المرمية نوراً وهدياً لمن يقرأها، إذ الإنسانية يبدأ تاريخها منذ عرفت النص المكتوب قبل نحو الستة آلاف سنة، أما قبل ذلك فهي متاهات وفيافٍ وتعليلات.

أحد الأصدقاء من الأدباء الظرفاء يقول إن ابنه الصغير قرأ الكتاب

الفلاني، يعني بذلك أنه مزّقه ورقة إثر أخرى ورمى بها جميعاً من الطابق العُلْويّ حيث يقطنون! وإني لأتخيّل هذا الكتاب النافع أو ربما النفيس تتهادى صفحاته في الجو ويجذبها الهواء في كل ناحية، ثم تحطّ أشلاء كتابٍ مبعثرٍ هنا وهناك فوق سطح من اللواقط التلفزيونية أو كومة من النفايات أو مجتمع ماء أو رأس أحد المارّة الذي قد تروّعه فينبري شاتماً وما درى أن طفلاً ينهمك في « مطالعة » كتاب عند أعلى البناء!

وهناك هذا الورق الذي يذوب شفافية وبياضاً، ويدعى بالفرنسية « ورق إنجيل »، وهو يشتق اسمه من الكتاب المقدّس لأن طبعاته الفاخرة تشتمل عليه. ويوجد في فرنسا سلسلة لروائع أدب هاتيك البلاد، فترى نتاج عمر الأديب الشهير مضموم الأطراف في جزء واحد غالباً، لأن الألف صفحة من هذا الورق الإنجيلي تماثل قرابة مائة صفحة من الورق العادي الشائع في طبع الكتب. وتوجد مجلات وصحف قليلة جداً تصدر في العالم متوسلة بنوع مشابه لهذا الورق الشفّاف، بحيث إنك لو طويت المجلة أو بالاحرى لفغتها طيّ مَعْطِفك لما أثقلت صدراً ولا نفخت جيباً.

وما دام الشيء بالشيء يُذكر فكيف لي أن أنسى ما يسمّى بالفرنسية « ورق زبدة »، والذي يستعين به صديقي الخياط أبو وسيم. فقد عامت زبدة هذا الورق في عيوني من كثرة ترددي إلى مشغله أبغي طقماً ميموناً ولا أبصر إلا ورقاً يستحيل ثياباً جاهزة لغيري، في حين أنال ما نال ذات يوم أبو الطيّب « أنا الغنيُّ وأموالي المواعيدُ »!

على أي حال فإن حظ الأجيال الآن مع الورق هو حتماً في برج السعد. فإن الذين درسوا ما بين الحربين العالميتين توسّلوا للكتابة بدفاتر سمراء مخصوفة الحجم كالحة الهيئة باهتة الأغلفة، وهذا ينطبق على كتب التعليم أيضاً. زِدْ أنه كان هناك أزمة ورق. ولا أدري هل كان هذا المشهد الذي ما زلت أختزنه في ذاكرتي من عهد الطفولة من آثار هذه الأزمة أم أن بطله هو من الناس الذين فات الجاحظ رواية مآثرهم في بخلائه؟ ذلك أني أذكر دفتراً، من غير أن أعي صاحبه أو مكان مشاهدته، وقد كتب عليه هذا الصاحب حساباته بالقلم الرصاص، ثم عاود استعماله كرّة أخرى

بالحبر والريشة هذه المرة! وآمُلُ أن لا تكون هذه الرواية ذات فائدة للذين ابتلاهم الله بداء الأصابع المضمومة أبداً!

ولا ريب أن استهلاكنا الحالي للورق على النطاق العالمي يبدو مخيفاً. ولا أعرض ههنا للاستعمالات الوفيرة للورق التي أزالت بضائع بعينها، إذ لم يعد مألوفاً على سبيل المثال وبشكل عام أن يحمل أحدنا في جيبه منديلاً، في حين كان هذا الصنف في يوم غير بعيد تجارة رائجة قائمة بذاتها. ولا أتحدث ههنا عن أنواع من الورق للمرء فيها مآرب أخرى، وإنما حديثنا منصبّ خصوصاً على الورق الذي دارت به عجلة المطابع وقذفته ورقاً مثقلاً بهموم الناس وبما يحلمون.

إن ملايين الكتب والجرائد والمجلات تتدفق وتغطي كرتنا، فعدد الأُميّين في نقصان، وإن كان نسبياً في ازدياد بالقياس إلى الزيادة السكانية الفاحشة وذلك في رِحاب ما يدعونه العالم الثالث، وشكراً للباقتهم فإنهم اتّبعوا التسلسل العددي فلم يضعوه حيث هو عملياً وقمعياً أي العالم العاشر فما فوق! والورق المطبوع ثورة عظمى في التاريخ، لأنه ببساطة حمى التاريخ نفسه من الضَّيَاع. ولا ننسى طبعاً في هذا المَقَام فضل الحبر، إذ لولاه لا أتخيل كيف كان في الإمكان المحافظة على تراثنا المدهش الذي يتوزع بملايين المخطوطات عبر مكتبات العالم ينتظر من يحنّ عليه بالتحقيق والنشر.

ورحم الله أبا عثمان الجاحظ فهو خير مَنْ تغنّى بما للكتاب من أفضال، إذ « الكتاب وعاء مُلِيءَ عِلماً، وظَرف حُشي ظَرفاً، وإناء شُحن مزاحاً وجدّاً... وبعد فمتى رأيتَ بستاناً يُحمل في رُدْن، وروضة تُقَلّ في حِجْر، وناطقاً ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء ». ولهذا غدا الكتاب سلاحاً خطيراً تستعين به الدعوات الاجتماعية، فهو طريقها لولوج عقول الناس وتحريكها نحو وجهة التغيير المرتجى. وليس عبثاً أن راكمت الأنظمة الاستبدادية، خلال العصر الحديث، أكوام الكتب في الساحات وأشعلت فيها النار. إنها تخشى لهيب الأفكار المستنيرة على وجودها العابر.

وأذكر في الستينيات جلسة ضمت لفيفاً من الكتّاب وقال فيها القاص

اللامع يوسف إدريس: لا أفهم كيف يخرج من بيروت هذا الحشد من الكتب التقدمية ثم لا يحصل فيها التغيير الثوري؟ لا شك أن مثالية يوسف الفنيّة طغت على تقديره، فالكتب لا تُحدث التغيير بمفردها وإنما هي بحاجة إلى اليد التي تُمسك بالقضيّة. وما دامت هذه اليد مفتَقدة أو مشلولة أو تحرك أصابعها في غير الاتجاه الصحيح، فالتغيير مؤجل والثورة تنتظر على الأبواب لأنها تبحث عن اليد المضرّجة التي تدقّ بها. يقال إنه لدينا اليوم هذه اليد، فعسى ولعل.

وعندما تتاح لي الفرصة لزيارة بعض بلاد الله الواسعة، خصوصاً تلك التي مَنّ عليها بالرقيّ والأناقة، فلا يفوتني أن ارتاد مكتبة لبيع القرطاسية علّي أفوز بين رفوفها بغلاف جلديّ محليّ الطابَع أضع فيه بعض أوراقي أو بدفتر جميل أخطّ عليه بعدها نُتَفاً من حبر أرقي وسُهادي. فللورق جاذبيته، فكيف إذا كان «ورقاً صينياً» يُصنع من لِحاء البامبو، أو «ورقاً يابانياً» لوّحته بعض الصُّفرة وهو ناعم الملمس كخد العذراء، مصقول كبَشَرتها، لامع كثغرها. ولا عجب فهذا النوع الأخير المترف من الورق يُستخرج بخاصة من خشب التوت، ومَنْ لمس التوت كمن خضّب أصابعه بالحنّاء!

من الأشجار والنباتات نصنع الورق، وعلى هذا الورق تنبت أفكارنا وتتداح عواطفنا وتثور أشواقنا. وعندما رثى أبو العلاء المعرّي أبا حمزة في قصيدته الشائعة «غير مُجْدٍ في مِلّتي واعتقادي» تمنّى لهذا الفقيه الحنفيّ أن يكون ورق المصحف له كفناً قُدسيّاً جليلاً:

واحبُوَاهُ الأكفانَ من ورق المُصْـ حفِ كِبْراً عن أنفَسِ الأبرادِ.

وهذه المقالة لن يكون مآلها أن تنام على فراش وثير من ورق «كوشه» أو «هولزفراي»، إن ورق الصحافة مأواها ونِعْمَ المصير!

(١٩٨٤)

الكتابة بالنار

مع عشْقي المتأصّل للكتابة بدا القلم بين يديّ عاجزاً مشلولاً. أدركتُ الآن كيف أن بعضهم يكسر قلمه في ساعة أزمة خانقة أو ضيق لا يُحتمل. وأنا لست في أزمة أو ضيق، وكيف أكونه وشعبي الصغير في لبنان الذي كان دوماً متّهَماً في مصداقية قوميته ووطنيته، والذي كان يستحبّ البعض إلقاء المواعظ والدروس المتفاصحة عليه، قد أزرى بالجميع ودفع الثمن الباهظ في صمت وبسالة. هل نفاخر فنقول إننا كنّا روّداً للقومية العربية على المستوى الفكري، ثم يدور الزمن دورته فإذا بنا، على ما يحتبس شعبنا داخلياً من معوّقات وتناقضات وتفجّرات كيانيّة بُنيويّة، نغدو المختبر الحقيقي لهذه القومية وهي تعاني التمزق والتشتت والحَيْرة والضّياع في لحظة مصيرية راعبة من تاريخها المعاصر.

هذه الأيام التاريخية الفاصلة سيذكرها الكثيرون بعد أن ينطفىء الهول الذي نعايشه ونعاركه. طليعة ثورية تحارب المستحيل بأرقى ما أعطته التقْنيّة الحربية الأميركية، أمّا أبناء العم والخال من مختلف الأفخاذ والبطون، لكي لا نذكر بقية الأعضاء، ومن كل فجّ وريح بين الماء والماء، فهم عنا لاهون، ولأمرنا متجاهلون، يتوضأون بالنفط الحلال، فهم في صلاتهم هذه عاكفون لا يلهيهم عنها نداء أشقّاء ترامى اليهم أنهم يتعرضون للقتل والإبادة في مجاهل الجنوب!

وكيف لا أكسر قلمي حَنَقاً وغيظاً، وهو الضعيف الخائر، في ساعةٍ يمتشق الفقراء السلاح على أنواعه يصوّبونه إلى العدو التاريخي. هؤلاء هم عجين القومية وخميرتها الباقية وديمومتها المنتصرة برغم الخراب والنكبات. قومية الصالونات والأندية والأنظمة المساومة سقطت، وليس من نجمة

أمل تلوح في الأفئدة سوى أولئك الشهداء تطلع من جراحهم الراعفة قومية الفقراء بُناة الأوطان الجديدة. وفلسطين هي المِحكّ وهي حبل السُرّة لهذا الجسد العربي العملاق تداعب أيديه مياه الخليج المالحة وتمسّ أرجله مياه المحيط الهادرة. وعلى امتداد الأرض بين الماءين يلهو جُلّ الحكّام ويتسافهون ويبذّرون الثروة القومية شبه الخيالية لأمة ما زال هؤلاء المتحكمون في رقابها يطعنون كل يوم آمالها الكبرى وما تحتبس الصدور.

وأنت، أيها القلم، ماذا تُراك فاعلاً الآن والزمن مدافع وقنابل وبرمائيّات وغارات ودماء وركض وشبّان يصمدون بإصرار وملحميّة ويصنعون الأحداث ويدفعون عجلة التاريخ ويشعلون الحريق الآتي بين الماء والماء؟ ولسوف ترتعد فرائص وتختلج رقاب، فالذين يعملون ويستبسلون ويضحّون بالأرواح وبكل جنى العمر ليسوا سواءً مع الذين يمتطون المناصب ويشاهدون أحداث أُمّتهم، وهي تلتحم مع عدوّها القومي، على الشاشات وعبر أجهزة البثّ وكأن الأمر لا يعنيهم!

دُمى كثيرة ستتساقط على أعقابها مع هذا المنعطف الحاسم الذي لا يقل خطورة وفداحة عن أحداث النكبة والنكسة، لأنه ببساطة هو التصفية. والتاجر الحاذق يعمد إلى التصفية في وقت يشرف بيعه على الفتور والكساد ونهاية الموسم. وهؤلاء الذين يسعَوْن إلى تصفية الشعب الفلسطيني، ومن ورائه الشعب العربي قاطبة، قد أعلنوا التصفية وسحق الأسعار بعد فوات الأوان. فلقد استعاد الشعب الذبيح هويته المضاعة ولمّ شتاته وأبرز مواهبه العلمية وشمّر عن ساعده العسكري المفتول وروحه الفدائية الخارقة، فكيف السبيل للصهاينة وحلفائهم من العرب المتصهينين إلى اقتناص الفرصة للأوكازيون المأمول؟ روح الشعب لا تموت، فكيف إذا استعاد الروح بعد مذبحة وتشريد وهوان اشترك فيها العدو والقريب؟

وأراني أجرجر الكلام بالقلم شأن الجندي المهزوم، إذ الأوان ليس أوان الدم البارد والتحليل الهادىء والإقناع المنطقي، وإنما هو أوان الشدّ والعراك واقتلاع عيون العِدى الذين شرّدوا أهلنا وما زالوا يلاحقونهم بالبطش والفتك والدمار والتمثيل. ما جدوى أن نكتب بالقلم، والوقت

للنار يخطّ بها الأبطال بعض سطور الكرامة في تاريخ أمة مهانة، مقطّعة الأوصال، مبددة القوى، مداسة من الداخل والخارج.

ثم هناك من يحاول أن يردّك عن صراع الطبقات والمصالح والكراسي والأهواء، على أساس أنها حكاية فات زمانها. لو كان أهلنا بدواً لهم الشِّيَم الشهيرة التي عُرفوا بها في تاريخنا القديم، لتسابقوا إلى نجدتنا ولتزاحموا على نُصرتنا. ولكنّ أهلنا بدو «متحضّرون» «مكندَشون»، وبالتالي فقد باعد بيننا وبينهم شيطان الامتيازات وهذا المرهم العجيب والشراب المستطاب «إيش إسمها الهنيّه هاذي» الذي يدعونه البترول! أهلنا هناك «طبقة» هجينة لو سمع بها ماركس لمات وفي حلقه غُصّة، إذ سوف تستعصي عنده على التصنيف. ما هذا، حكام بدو أُميّون يمسكون بثروة العالم! ولكان يُخشى على ماركس أن يقع في رِدّة كولونيالية لا سمح الله!

حتى السخريةُ أصبحت مُرّة في حلوقنا هذه الأيام المشحونة بالاضطراب والبذل. ونلوذ بالصمت القلق، لكنه ليس الصمت المريب لحكام هذه الأمة المعذَّبة. صمتهم ليس فضيلة، إنه موافقة على ما يجري مكرهين أم راضين. وصمتنا عذاب وبحث واستشراف لما يحمل لنا المستقبل.

وها أني قد كتبت هذه الأسطر الحَيْرى، ودعاني إلى تحبيرها نداء صديقة وهي تقول لي: «لماذا لا تكتب؟ الكتابة ضرورية». صحيح، لكن الكتابة بالنار أصدق وأجدى هذه الأيام.

(١٩٨٢)

«الجربندية»

مَنْ يَرَهُ متأبطاً فوق كتفه هذه الحقيبة يحسب أنه ذاهب في سياحة، أو أنه أحد الهواة يمشي في الأرض طلباً للنزهة والترويح عن النفس ولا يشغل باله شاغل سوى العثور، بواسطة نظّارته الطبيّة السميكة، على قطعة نقديّة قديمة أو إناء معدِنيّ مطمور تحت تراب التاريخ. وهو يدعو هذه الحقيبة باسم عتيق التداول، امتحنت ابني به فأجابني متعجّباً: وما هي الجربنديّة؟! وللحق فقد شاقني أن أعرف الأصل الأجنبي على الأرجح الذي دخلت منه هذه المفردة إلى لغتنا العربية، ولعله أن يكون فارسياً، لكن مسعاي ذهب سدى. وإن كان التداعي اللغوي حملني على المقارنة والمقاربة بين الجربنديّـة والجِراب، إذ كلاهما يحمل معنى الوعاء. ومن معاني الجِراب في العربية: قِراب السيف، جوف البئر، الوعاء من الجلد، ولمن يهمه الأمر وعاء الـخُصْيتين!

وللكلمات حياة وموت، فهي تجري في سوق التداول زمناً ثم تخبو وربما تندثر، خصوصاً الأجنبية منها، وذلك تَبَعاً لحياة الشعب والمؤثرات الثقافية والاجتماعية التي يخضع لها. ولو قمنا بعملية غربلة لمعجمنا العربي لوجدنا أن نصف لغتنا لم يعد رائجاً بالتأكيد، ويمكن الاستغناء عنه في القواميس العامة غير المتخصصة، وذلك لأن البيئة البدوية الصحراوية التي كانت مرتعاً أصلياً ومهداً لنشأة هذه اللغة العريقة قد طرأ عليها تغيير عميق منذ العهد العباسي، فكيف الحال ونحن نحيا عصر الفضاء والكومبيوتر والتِقْنيّة العجيبة!

والدهشة التي خالجت ابني لدى سماعه كلمة الجربنديّة سوف تعاوده إذا ما طرحتُ على مسامعه كلمات كانت رائجة لعقود قريبة في المجتمع

البيروتي أو الدمشقي وأدركها جيلنا، لكنها اليوم بالنسبة الى أبنائنا موضع تسآل لأنهم يغترفون الكثير من مفرداتهم المعاشة من موارد مختلفة ووسائط للإعلام حديثة. كنا نقول «المنزول» للصالون أو غرفة الاستقبال، وكان من مألوف عادتنا أن نسمّي ما نتناوله من فواكه إثر الطعام «فروتّو»، إلى ما هناك. والصحافة هي المطبخ الحقيقي لرواج المفردات، سواء كانت مشتقّة من صُلب لغتنا، وما أغناها في هذا الميدان، أو دخيلة وافدة. إرمِ مصطلحاً على صفحات الجرائد فيصبح في فسحة زمنية قصيرة على كل لسان، في حين أن المجامع اللغوية تظل جهودها في الغالب خارج دورة الحياة وضمن الغرف المغلقة. وهذه المجامع تُفلح في مصطلحات العلوم المختصة لكنها قد تُخفق في مصطلحات الحياة اليومية وتنأى عن التوفيق، لأن لغة الحياة تفرض نفسها من تلقائها بغير اصطناع. وللصحافة في زمننا، كما ذكرنا، دور مهم جداً في إشاعة المفردات الطارئة على مجرى أيامنا.

ولكن ما بالنا، فقد نأت بنا المسافة عمّا شرعنا فيه مطلع حديثنا عن جربنديّة صاحبنا. ولعل القارىء يخالها ملأى بالأغراض التي يحتاجها مَنْ يذهب إلى مزاولة لعبة التنس، أو أنها محشوّة بالأطعمة اللذيذة بحيث إن المارّ قربها قد تداعب أنفه روائح تفتح المعدة وتُسيل اللُّعاب. بيد أن حال هذه الجربنديّة ليست من هذا الصّنْف ولا ذاك، إنها جربنديّة أدب وفكر وفن تحتشد بعشرات الأسماء من أصحاب المقالات كتبوها لتحفظ أرَقهم والهموم، وبعثوا بها إلى القيّم على الصفحات الثقافية ليجول بناظريه فيها وينتخب. ولكن الصحيفة تحلّ في طرف من العاصمة والقيّم يقيم في طرف آخر، عفواً هو في شرقستان والجريدة في غربستان - طبعاً إذا وجد قارىء هذه الخاطرة شَبَهاً بين محتويات هذا الكلام وحال مدينتنا بيروت فليعلم أن ذلك ليس سوى مجرد صِدفة! وقد تقع مناوشات بين شطري المدينة التي نتكلم عليها، وبالتالي تنقطع خطوط الوِصال وتتأزم الأحوال. ولهذا فالقيّم على الثقافة في الجريدة عِوَضَ أن يضع موادّه المتكاثرة في أدراج مكتبه، فهو يحملها على كتفه ليتدبر أمر إرسالها

إلى جريدته على هذا النحو أو ذاك عندما تشتعل النار ويدبّ الخُلْف بين القبائل العصرية المتناحرة على ضِفَتي الجدار البرليني المبتكر الذي نبتت على حفافه من هنا وهناك الأشجار الصغيرة، إذ الزمن متوافر والأمطار الموسمية مدرار والخير على ما يبدو لقُدّام!

وإذا صدف، عزيزي القارىء، أن التقيت الأستاذ المشرف يتأبّط جربنديّته في زحمة من الناس فترفّق بهذه الحقيبة واحرص على سلامتها، فهي مترعة بالعواطف والأفكار والأشواق، فإذا صَدَمْتها فأنت ترجّ جملة أنيقة أو كوكبة من الآراء سديدة أو بيتاً من الشعر يعبق برائحة الأرض. هو نتاج غزير متراكم مختلط، فربّ دراسة عن ظاهرة الغِشّ في الامتحانات الرسمية، تعلوها قصيدة عن نهد حَيْران، ويرقد تحتها مقال متقن عن مسرح اللامعقول في الحياة والأدب العربيين! نتاج متزاحم متعانق يُخبر أن العقل العربي ما زال يعمل، والمثقف العربي ما برح يواكب الزمن ويلاحق كل جديد. أمّا لماذا نحن كما نعهد من ضَيَاع وفُرقة ودياجير فهذه قصة الأنظمة السياسية التي تشمئز في معظمها من رائحة الديمقراطية: وتعتبر الثقافة ديكوراً وحِلْية، وربما تخشى أن يزول ظلام الأُميّة المتفشية في أرجاء الوطن الكبير. ألم نبدأ تعلم القراءة بهذه الجملة الشهيرة التي ما زلنا نحنّ اليها: العِلم نور؟

(١٩٨٥)

القابلة التي نفتقدها

لعل ما يحملني على ارتياد معرِض الكتاب الذي يقيمه « النادي الثقافي العربي » في القاعة الزجاجية خلال كانون الأول من كل عام، بحيث غدا حدثاً تقليدياً مرموقاً ينتظره الناس ويهيّئون له النفس والجيب، أنه يتيح لي فرصة اصطياد كتاب لم أسمع به، على وفرة متابعتي كل جديد في عالم الحرف المطبوع و « الملاَزم » المضمومة. فالنقص ليس متأتياً من الكاتب، فهو قد أبدع ورمى بمخلوقاته في سوق الفكر والحياة وفي زحمة الناس القارئين. ولكن التقصير يقع غالباً على النقّاد، وما أندرهم في حياتنا الأدبية، ولعل القول بافتقارنا الشديد اليهم وأننا نعاني أزمة في هذا المجال ليس فيه أي غُلوَ أو إطلاق. فالناقد الحقيقي مرشد لا يُستغنى عنه في أيَ حياة ثقافية نَشِطة.

إننا نفتقر أيضاً إلى أجهزة تُعنى بمتابعة النتاجات وتقديمها، إلى جانب مهامَ كثيرة تُوْكَل اليها. ولعل الحديث المتجدد من آن إلى آخر حول وجوب إحداث وزارة ثقافة لم يفقد أوانه ولا جدواه وجِدّيته. ولا يفوتنا بالمناسبة أن نشير بالخير والفائدة إلى بعض الدوريات البيبليوغـرافيـة التي شرعت تظهر، متخذةً من النتاج الجديد همّاً لها، شأن « الفِهْرِست ». كذلك فإن الصفحات الثقافية في الجرائد والمجلات مقصّرة على العموم بحق الكتاب، وهي إذا ما عرضت لبعض النتاج المطروح فعلت ذلك في غير تخطيط. وقد يكون للصداقة أحياناً سهم في هذا الاهتمام، وقد يكون لصلات الكاتب أو الدار الناشرة نصيب آخر في الاحتفال المعني. المهم أن الصفحات الثقافية بإمكانها، لو وعت رسالتها في هذا الميدان، أن تلعب دوراً بنّاء في توعية القارىء بما يجدّ من نتاج في عالم الكتابة وإرشـادِهِ إلى

الصالح المفيد وحثه على اقتناء الأعمال الجميلة.

في الواقع كم من كتاب جيّد نلحظ بعد أعوام أنه لم يحظَ بمن ينقده، أو ينبّه اليه، أو يعرّف جمهرة القرّاء بوجوده دعكَ من الإشادة به. ولا أتحدث عن مشاهير الكتّاب أو المفكرين، فهؤلاء أضحَوْا جزءاً مؤسساً من نهضتنا، ولم يعودوا بحاجة إلى تعريف أو تقديم أو لفت نظر. إن أسماء شأن: إحسان عبّاس، محمود أمين العالِم، محمود درويش، نجيب محفوظ، حنّا مينه، الطيّب صالح... هؤلاء الذين وردت أسماؤهم في الذهن عفوياً، وغيرهم وغيرهم من المبدعين الكثيرين في رحاب الوطن العربي، لم يعد النقد يضيف اليهم شيئاً عظيماً، فهم قد تكرّسوا في مسيرة ثقافتنا روّاداً وأعلاماً، وهَمّ النقد أن يتابع تطورهم ويزيد في سجلهم الحافل فصلاً وفضلاً.

مهمة النقد أن يكتشف الأسماء الواعدة، ويعثر على المواهب الخبيئة، ويأخذ بيد من تنبىء إطلالاتهم الأولى بمذاق خاص وخميرة. وعندما يقصّر النقد حيال صاحب قلم يكون مقصّراً في حق الرسالة التي انتدب نفسه لحملها. وفي ظني أن الناقد ينبغي أن يكون أوفر الناس رحابة صدر وخُلُق. إن مهنته هي الفرح بالمواليد الزاعقة، فهو القابلة الأدبية التي تزغرد بالنتاج الجديد وتبشّر الناس أن كاتباً أغرَّ قد انضاف إلى جنود الحرف المكافح. ولست أتخيّل أن ناقداً حقيقياً يمكن أن ينطوي صدره على غِلّ أو حسد أو خيَلاء. الناقد قيمة أدبية وخُلُقية. وليس معنى هذا أن يكون الناقد متساهلاً في أحكامه، فالنقد لا يحتمل أسلوب جبر الخواطر وسياسة «مننا»!

لقد مرّ علينا حين من الدهر، عندما كان الأدب الواقعي يأخذ طريقه إلى كتابتنا، كان يكفي أن يتكلم أحدهم على الأحياء الشعبية أو يصوّر مظاهرة عمّالية في أدبه، مهما يكن حظّه من التوفيق، حتى تشفع له هذه البادرة ليفوز بنعوت التّبريز والإطراء والتقدمية. هناك أدباء كتبوا مستوحين حياة العمال وإضراباتهم، وكان ما كتبوه أدباً جليلاً شأن إميل زولا وغيره من المبدعين. ولعل العبرة الكبرى، في هذا الصّدد، تأتي من

أديب عظيم خرج من صفوف الشعب والثورة هو مكسيم غوركي. لقد كتب غوركي روايته الشهيرة «الأم»، وليس عندنا أدنى شك أن هذا العمل لعب دوراً نضالياً وتحريضياً، وهو قد حمل كثيرين في كل مكان على أن ينتقلوا إلى ضِفَّة الوعي والتقدم. ولكن هذه الرواية في ميزان الأدب ليست قطعاً أفضل نتاج جاد به قلم غوركي المرهف. وهي إلى ذلك الأثر البروليتاري الوحيد في تراثه الأدبي. فقد كانت هذه الرواية بعض نقاط الخُلْف والنقاش التي ثارت بين رفيقي النضال: لينين وغوركي. إن قائد ثورة أكتوبر كان معجوناً بالسياسة، ولكن لينين كان ينحدر من عائلة مثقّفة، وبالتالي فلم تفتْهُ عيوب «الأم». وكان جواب غوركي أنه كتبها على عَجَل! على أن العلامة الفارقة للينينية هي المرونة، لهذا أدرك لينين الفائدة العملية القصوى لعمل كهذا وفكّر توّاً في ترجمته إلى اللغات الأجنبية. وكان تقريظ لينين الوحيد الذي وجّهه إلى غوركي، كما يذكر صاحب «الأم»: «لقد جاء هذا الكتاب في اللحظة المناسبة».

(١٩٨٢)

الكاتب وصحن الفول
وسرير بروكست

إن حكاية الكاتب عتيقة مع « الصفّيف »، كما كان يُسمَّى قديماً، عندما كانت الطباعة تقوم على لملمة الحروف ورصّها حرفاً إلى جانب الآخر. وهذا أمر كان سائداً لثلاثين سنة مضت، فالقديم ليس غابراً منسياً، ولكننا نعيش عصراً انقلابياً مدهشاً عجيباً بغير مبالغة. فكلمة المبالغة نفسها غدت قَرَوَسطيّة!

إن « العازف » حالياً على طابعة الكمبيوتر قد لا يطول أمده، وإني لأتخيل - وكم تخيل « جول فِرن » ثم بدا أنه كان « مقصّراً » في تخيلاته، بالقياس إلى القفزات التي ينجزها عقل الإنسان المعاصر - أنه سيأتي يوم نتحدث فيه أمام آلة، وهي تقوم بمهمة الضرب تلقائياً وبذكاء تُحسد عليه!

إن الآلة التي تنهض بعملية الترجمة قيد الإنجاز، فلا غرابة - عفواً، ما زلت من عصر مضى وانقضى، إذ إني أستعين بمصطلحات تضطرب بالدهشة والاستغراب، وفات قلمي أن بعض عباراتنا بات بحاجة إلى مراقبة وغربلة في ضوء إنجازات العصر. أقول: إذن فمن الطبيعي أن الطباعة القادمة ربما ستكون بغنى عن الإنسان نفسه للقيام بها. ولا أدري إذا كانت الصحيفة ستغدو ذات يوم أغرّ من إنجاز مجموعة من الآلات الدقيقة الفهّامة المرهفة التي ستُتِمّ بذاتها عملية الاتصال والتحرير والطباعة، ويبقى علينا التوزيع وقبض الاشتراكات!

طال بنا الاستطراد، فلنعد إلى حكاية الكاتب مع عامل الطباعة الذي يضرب الكلام على آلة هي نظير آلة الدكتيلو. والكاتب معنيّ بألاّ تفوته

همزة، وضمة هنا وفتحة هناك، هذا لكي لا ننسى الشدّة لأن إهمالها أحياناً يوقعنا في شدّة. ويتناول العامل النص فيضرب صَفْحاً عن كل هذه التدقيقات، وتصبح قصته مع الكاتب قصة صحن الفول.

يُروى أن أحدهم دخل مطعماً، وعندما تقدّم منه الكرسون مستفسراً عن مبتغاه من الطعام، أفاده أنه يطلب صحن فول «إكسترا»، وأتبع الطلب بشرح طويل. فالفول المرجوّ ينبغي أن يكون سودانياً أصيلاً لا شُبهة نُميريّة فيه، والزيت ربما كورانياً، ولعله كان صاحب ذوق فأردف في جملة شروحه أنه يصرّ على أن يكون البصل من «بْرِيْح». وهذا البصل، أيها القارىء الذي ربما استفاقت شهيتك إلى الأكل، والمائدة في السطور السابقة ممدودة، هو فاكهة ولا أطيب، فعليك به ولنا الأجر والثواب. وبعد الشرح المستفيض التفت الكرسون إلى المعلم المولج بالفول صارخاً كعادته بلا زيادة: صحن فول للأستاذ!

هذا لكي لا نقول إن عامل الطباعة لا يُغفل التدقيقات التي يحرص عليها الكاتب فقط، وإنما قد يسهو أحياناً ـ سبحان الذي عينه لا تغفل ولا تنام ـ فيحلّل ما يشاء ويرتكب أخطاء مطبعية، آمُلُ أن يُعفيني منها في هذه الكلمة على الأقل. وقد يتبرع ـ غفر الله له ولنا ـ بتصحيح بعض ما قد يعتقده خطأً، وهو صواب. ويبدو أن عامل الطباعة مع الاجتهاد اللغوي الذي يقول: خطأ مشهور خير من صحيح مهجور.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، لكن للكاتب حكاية أخرى مع منسّق الجريدة، أو منسّق صفحة الثقافة مثلاً. فلربما وقع المنسّق، وهذا يحصل دائماً، في ورطة من أمره، لأن بعض المواد يحتاج إلى شيء من التقصير، بحيث يتمشى وحال إعداد الصفحة. ويبدو أن المنسّق يحتفظ عند الضرورة بنسخة من سرير بروكست! فهو يبتر ما زاد عن الحد، ما همّ هو قد أنجز عمله، وهذه الأرجل الممتدة لمقال أو دراسة يمكن تقليصها. وأخشى ما أخشاه أن يعمد المنسّق إلى هذه الأسطر الأخيرة التي قد لا تروق له فيحذفها على أساس الضرورة الفنية.

بنات أفكار الكاتب عزيزات مُحْصَنَات عنده، بحيث لا يستميح

لأحد عذراً في مسّ عفافهن أو التعرض لهن بتعديل من تقديم أو تأخير، فكيف إذا وصل الوضع إلى الحذف وتقطيع الأوصال واستباحة الحُرُمات.

وأذكر في هذا المجال أني قصدت المطبعة ذات مرة، لاستلام «بروفة» دراسة مسهبة متخصصة لإحدى المجلات الثقافية الشهرية. وقابلت العامل المشرف، ولم يكن دارياً بأني صاحب الدراسة المشؤومة، فقال لي مستاء: «شو هيدا فلان بدو همزه وشدّه وتشكيل، مش معقول»! فخفّفت عنه، وتسلّمت البروفة، وغادرت المطبعة من غير تأخير، خَشْية أن يبدأ العامل، تحت وطأة غيظه، بمنتخبات من تحت الحزام على شرف «فلان»!

(١٩٨١)

شكسبير البعلبكي

يُحكى عن الفنان العظيم رمبرانت أنه، في جميع ما رسم من لوحات «بورتريه» اشتهر بها، وضع شيئاً من ملامحه على قماشة هذه الأعمال! وإذا أنعمنا النظر وشرد بنا الذهن إلى رؤيةٍ مقارَنَة وجدنا أن الكاتب مثلاً يغترف في الكثير من إبداعاته من جدول حياته وتفاصيل سيرته. فهو يحمّل أبطاله شيئاً من شواغله وعواطفه، هذا إذا لم يستتر خلفهم لكتابة ترجمة ذاتية مقنّعة. ولذلك ينسرب فيض من أفكاره ورؤاه وشهواته إلى نسيج أبطاله الذين يُدخل في طينتهم المتخيَّلة جزءاً من عجين طينته.

وهذا التداخل بين الفنان ولوحاته لمسته شخصياً على نحوٍ ما عَبْرَ تجربة خاصة مررت بها وأسمح لنفسي في عرضها تبياناً لفكرة وليس تباهياً أو غروراً، وكلاهما بعيدان عن معدِني. فقد تكرّم صديقان فنّانان ورسما العبد الفقير، محبّة منهما وعلى هَدْي المودّة الجامعة في ما بيننا. وكلا الصديقين أرمنيّ الأرومة، كما نقول في لغتنا التراثية، أولهما فنّان يرسم بالزيت والثاني فنّان كاريكاتور من جيل الروّاد. وكانت النتيجة أن جُلّ الذين شاهدوني في عمليهما استوقفتهم الملامح الأرمنية في وجهي وتساءلوا متعجبين عن مصدرها! وباستثناء احتمال أن تكون خالطت شجرة عائلتي دماء أرمنية، وهو احتمال تنفيه الدراسة الاثنيّة حتى تاريخه، فإن القَسَمات المتسللة إلى وجهي من «يرڤان» مبعثها أن الريشة التي جرت على القماش والورق كانت تُمسك بها يد أرمنية!

وهذا الاختبار تبصّرته أخيراً لدى أحد طلاّبنا، إذ هو شغوف بوليم شكسبير، وأيّ لا يهوى هذا الأديب الذي دخل الخلود من أبوابه العريضة ومكث ناعم البال متربّعاً لا تزيده السّنون إلاّ تألقاً وسعياً من

الباحثين إلى إعادة فهمه واكتشافه. وهذا الطالب أتى من «البقاع» ينهل العلم في العاصمة. وأسعفته يده الصَنّاع الذوّاقة في رسم لوحة بالحبر الصيني لصاحب هملت وعُطيل. فما وقفتُ عندها مرة إلاّ تساءلت مبتسماً: وما دخل شكسبير في أهل بَعْلبكّ؟ فسّحنته كما رسمها طالبنا تؤكد أنه بَعلبكيّ من هذا السهل البقاعيّ الجميل الذي تنمو تحت شمسه الدافئة الجذلى أشجار مثقلة بالطعم والخير ونباتات غير بريئة تبعث الكيف في بعض الرؤوس والأجسام و «يرعاها» بعض «الهواة». ولم يُعرف عن شكسبير، على حد علمي القاصر، أنه كان مغرماً بهذه «النفائس الوطنية». ولم يُشر أحد من دارسيه أنه تردد إلى بقاعنا لتزوّد هذه «الخيرات» المُضِلّة بحيث ترك مُناخنا المختار خلال زَوْراته المحتملة ملمحاً من بطاقة البقاع الانتربولوجية على صفحة وجه زينة الإنكليز، بحيث قيل إن إنكلترا مستعدة للتنازل عن الهند وليس عن «مُلكية» هذا الإنسان الشهير!

المَسْحة الأرمنية الوافدة على وجهي، والهويّة البَعْلَبَكيّة المستجدّة لسيّد المسرح الدرامي، نتجتا من حقيقةِ أن الفنّان أو الأديب، محترفاً كان أم هاوياً، له جذور قومية أو وطنية أو محلية تنسكب في تصرّفاته وأهوائه وردود فعله الاجتماعية والفنية، وتتبدى على هذا النحو أو ذاك عَبْرَ لون أو شكل أو ميل أو اختيار. وعالمية الآداب والفنون لا تعني الانفلاش خارج البوتقة الخاصة والدائرة الحميمة للفنان المبدع، إنما تكمن في ضرب من التقوقع «المحمود» لنبش مزايا البيئة الضيقة وما تكشف من خصائص. ولهذا يبدو رسول حمزاتوف من أقرب الكتّاب السوفيات المعاصرين إلى القلب والذوق، لأنه بالتحديد يتكلم بأسلوب جذّاب في روايته المحلية الشائقة الممتعة «بلدي» على قارّة مجهولة لدينا هي داغستان. إذ من الصحيح أن الجوهر الإنساني واحد في نهاية المطاف، ولكنّ هناك تلاوين جمّة وطباعاً متباينة وأساليب في العيش والشعور متفاوتة، وهي مصدر ثراء وقد انبعثت من أوضاع بشرية لا مفرّ من مراعاتها وتفهّمها. فالوَحْدة لا تعني التماثل الفجّ الرتيب. وعندما دعا ذات

يوم ساطع الحُصَري إلى أدب قومي عربي، فإن دعوته الساذَجَة بدت انعكاساً لدعوته السياسية التي لم تكن بدورها عميقة الغَوْر فكرياً واجتماعياً. فوَحْدتنا العربية المأمولة ستأخذ واقعياً صيغة التنوّع في الوَحْدة، إذ ماذا نفعل بهذا «الموزاييك» التاريخي الموضوعي الممتد من جبال أطلس حتى جبل الباروك؟ هل نُلغي الفروقات على مختلف نبراتها وميادينها، فالخاص لا يلغي العام وإنما يبلوره ويعطيه الطابَع المميز والغنى المادي والروحي.

وفي الحيّز الأدبي والفني فنحن جميعاً في أقطارنا العربية كافة نكتب أدباً يشعّ بحرف عربي مبين، وهو تارة يشي بالحداثة، وطوراً يمتزج فيه النمط الكلاسيكي بأقباس من الإيقاعات العصرية شأن ما نطالع لدى الطيّب صالح في «موسم الهجرة إلى الشمال» أو أحمد ولد عبدالقادر في روايته الموريتانية «الأسماء المتغيرة». ولا نتحدث ههنا عن الكتابة التقليدية السقيمة من شعرية ونثرية التي تنسرح طولاً وعرضاً ولا تقول شيئاً البتة، فهي جعجعة كلامية وليست أدباً. وفي الحالتين الأوليين فنحن حيال أدب حيّ متنوّع البيئات العربية من الحضارة إلى البداوة، ولكنه يعبّر جميعه عن أزمات هذا الإنسان العربي المقهور أو المقموع أو المشدود إلى أغلال التخلف وكل خليّة في جسمه تحفزه على التغيير وطي صفحة التعصب والغيبيات، ولكن أنّى له ذلك والأنظمة تطحنه عِوَضَ أن تُفسح له الطريق. ومن هنا فإن دراسة «سوسيولوجية» لأدبنا العربي الحديث سوف تكشف ولا ريب أن كمية الصُّراخ والأنين والتمرد، الناتجة من الاضطهاد على أنواعه و«الكلبشات» والزنازين، والراسبة في قعر هذا الأدب، لافتة للنظر كبيرة.

(١٩٨٥)

خواطر طيارة

الـ « طيّارة » ههنا ليست اسماً وإنما هي نعت للآراء العابرة التي تمرّ بالخاطر نظير سِرب السُّنُونو يحلّق ويحوّم ثم يمضي خطفاً. وما بالك بطائر كهذا، سريع الطيران، يلتهم الحشرات في الهواء! والطيّارة لم تعد أمراً عَجَباً في حياتنا الراهنة بحيث تبتعث الخواطر، وإن كانت ما تزال مبعث الهموم والشجون لبعض الذين يمتطونها وفي البال منهم أن وقعتها وقعة لا استئناف فيها ولا رجعة. وما شأن الطائرة في زمننا العجيب، ونحن نكاد نكون على عتبة اليوم الذي نقصد فيه شبّاك تذاكر لنبتاع بطاقات تخوّلنا الإقلاع في سياحة فوق القمر. ومَنْ يدري فلعل القمر يصبح في القريب ،عِوَضَ بزمّار أو قبرص، مكاناً مختاراً للعرائس يقصدونه في شهر العسل قبل أن يحلّ شهر البصل. ورحم الله فوزي المعلوف فلقد ركب الطائرة عام ١٩٢٦ في البرازيل، فما كاد يقوم بهذه التجربة الفريدة لعهدها حتى فاضت قريحته، أو كما يقول فولكلوريّو اللغة العربية: هاجت بلابل صدره، فكان أن أبدع قصيدته الكبرى « على بساط الريح أو شاعر في طيّارة ». ولقد ولّت تلك العهود الخوالي، فالتِقْنيّة الحديثة جعلت من طائرة فوزي المعلوف البدائية خُرْدَة من قبيل حديد يا قضامي. ثم من الطرافة بمكان أن أجمل ما في قصيدة هذا العَلَم من الدوحة المعلوفيّة ليس ما قاله في النجوم والسماء والطيور والأرواح عَبْرَ أناشيد قصيدته، وإنما الجمال الشعري ينضح في عمله عند أوبته إلى الأرض وقد فزع إلى قلمه يبثّه شكواه. هذا اليراع هو دائماً بالنسبة إلى الكاتب بمنزلة السلاح والنديم والحبيب والخِلّ الوفي. وما دام الناس هم الناس فلن يأنس صاحب قلم سوى بريشته التي تنزف صدقاً في عصر يحتشد بالرّياء،

وتسامحاً في حين تخفق رايات المذاهب والعصبيات.
يقول فوزي المعلوف:

يا يراعي ما زلتَ خيرَ صديقٍ	ليَ ـ منذُ امتزجتَ بي ـ وستبقى
باسماً من سعادتي حين أهنا	باكياً من تعاستي حين أشقى
كم حبيبٍ سلا وعهدُكَ باقٍ	فهو أوفى من كل عهدٍ وأبقى
أنت رغم الجحود خِلٌّ وفيٌّ	حوّل المستحيلَ غُولاً وعَنْقا
رُبّ دمعٍ كفكفتَهُ من عيوني	سال حبراً في الطِرْس يخفق خَفْقا
أنا لم ألقَ مثلَ صمتك صمتاً	حوّلَتْهُ عرائسُ الشعر نُطْقا!

شرعتُ في هذا التمهيد على أمل أن يكون بضعة أسطر ثم أدلف بعدها إلى خواطري الطيّارة، وإذا بالحديث يستفيض، وكما نقول فالكلام يجرّ الكلام، وما ذنبي إنْ كان قلمي يرشح بالفِكَر، هل أئِدها؟ ووأد الأفكار شأن وأد البنات، واللهِ، حرام! على أني لن أدع القارىء العزيز من غير أن أسوق اليه الخاطرة التالية.

في أواخر الأربعينيات التقى دبلوماسي عربي بسفير الولايات المتحدة في القاهرة، وكان عائداً لتوّه من رحلةِ عملٍ إلى اليمن. فسأله الديبلوماسي العربي عن حال اليمن واليمنيين، ففتح السفير الأمريكي كتاباً كان بين يديه وقال: يحتاجون إلى خمسة آلاف سنة ليصلوا إلى التمييز بين الأبيض والأسود!

سامح الله سفير العم سام فلقد بالغ قليلاً في عدد السنوات، وما حيلته الآن ـ هذا إذا ما كان على قيد الحياة بعدُ ولم يأنس الموت مكرهاً بصحبة أمثاله ـ إذا ما زار اليمن الديمقراطي وعاصر الشعار المرفوع هذا العام وهو محو الأميّة. ثم إذا ما زالت له عيون تُبصر وتقرأ فسيطالع مانشيت كبيرة زرقاء اللون في أعلى الصفحة الأولى من جريدة «١٤ أكتوبر»، تتبدل عبارتها كل يوم، وهي مستوحاة من مغزى المعركة التي يشارك فيها القادرون على التعليم ابتداء من أبسط يمني أصبح يميز بين الأبيض والأسود الى الرئيس علي ناصر محمد نفسه.

اليمنيّون لا يميّزون، وَفْقَ رأي السفير، الأبيض من الأسود، ولكن

الأمير كان كما عهدناهم على شواطئنا، وفي مدينة النمل قرب المطار التي شادوها تحت الأرض على نفقة جيوبنا وعرقنا، ومن خلال مدافع نيو جرسي التي أثبتت أنبا أولد جرسي، هؤلاء قوم أعطَوْا البرهان، وسبق لهم أن دفعوا برهاناً ناصعاً كهذا في كوريا وفيتنام وكوبا ونيكارغوا، أنهم لا يحسنون قراءة العصر ومطالعة التاريخ ويحسبون أن المدافع الحمقاء وحدها يمكن أن تجعل الأسود أبيضَ! للمناسبة أجمل الأفلام هي بالأسود والأبيض. هل تحبّ السينما؟

(١٩٨٤)

لغة الشعب ولغة الجرائد

ما سمعتُ أبناء الشعب يتحدثون مرة في السياسة أو يخوضون في أمور الحياة وشجونها، إلاّ وعجبت من الحس السليم الذي يتحلّوْن به. فهم يعبّرون بجمل بسيطة لا تعقيد فيها ولا تفاصح، ويؤيدون ما يذهبون اليه من آراء وقناعات بأمثال ومحطات كلام شائعة، وربما لجأوا إلى كلمات هي في معجم الإنسان المهذّب نافرة لا تليق بالفرد المتمدن المتأنق المتفرنج.

إن الشعب بسَذَاجته ـ المنسوبة اليه خَطَلاً ـ وفطرته وتلقائيته يقبض على عُنُق الحقائق، وتراه يلخّص الموقف السياسي على تعقيده بعبارة سريعة مكثّفة، هي أشبه في الأدب بما أُطلق على أسلوب ابن المقفّع «السهل الممتنع». أبناء الشعب هم أبناء الحياة، وبالتالي فهم يعاركون حقائقها ويتلمّسونها بالبداهة.

ما رأيت مثقفاً يتحدث في حَلْقة من الناس الطيّبين إلاّ ووقفت جاسوساً على قاموسه. إنهم ينظرون اليه عَبْرَ هالة من التبجيل والانشراح والغِبْطة، والمثقف يخفي غروره وشعبيّته، وربما يتكتك سُبْحة عقيقيّة ويتطاول منه العُنُق ـ يا سبحان من وزّع الأعناق وقدّر الأرزاق! حتى إذا ما فاه أخونا إياه بما تيسّر من عيون الكلام تدحرجت على لسانه مفردات منتقاة مجلوّة لا غبار عليها كما نقول، وعِوَضَ أن يوضح الموقف السياسي أو الاجتماعي الذي يريد التعبير عنه يزيده غموضاً ويغرقه في زحمة من الكلمات المجلوبة الحِسان التي أغدقتها علينا الحضارة ـ كما عبّر عن هذا المعنى أبو الطيّب، طيّب الله ثراه.

وههنا تتبدى المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتق الصّحافة. إن وسائل الإعلام أضحت اليوم ذات مفعول ليس من المغالاة نعته بالسحري. ولهذا

نجد الصهيونية تسعى أول ما تسعى إلى الإمساك بهذه الوسائط من صحافة وتلفزيون وسينما ومسرح، فتتغلغل على نحو أخطبوطيّ في إعلام البلد الذي تجد مجالاً رحباً لمد نفوذها في شرايينه. إن إسرائيل قائمة على الاستيطان القسري، شأن دولة جنوب أفريقيا حالياً، ونظير روديسيا والجزائر سابقاً. ولكن هل بمِكنتك إقناع شخص أوروبي أو أميركي بهذه الحقيقة بيسر، حتى ولو كان مثقفاً واشتراكياً بالإضافة إلى ذلك؟ إن دماغه قد غسلته وسائل الإعلام بلا هوادة.

وإذا ما أتيتُ على مسؤولية الصحافة في عملية تثقيف الشعب دون غيرها من الوسائط الإعلامية، فذلك لشيوعها الضخم في عصرنا، ولأنها الزاد اليومي الذي لا غُنْيَة لي عنه. وقد «أزدرده» صباحاً أو مساء أو ما بينهما، على أني «ألتهم» الصحيفة حقاً. فإني أقرأها بالتتابع، فلا أغفل عنواناً مهما صَغُرَ، ولا إعلاناً إلاّ إذا تكرر! وبعض الصحف تحسن الظن بجيوب قرائها والجماهير، في هذه الأيام الكاوية، فتقدّم لهم في بعض زواياها صحن اليوم «جوانح الدجاج مع العطر». وعند قراءة الوصفة المجانية على القارىء ألاّ تفوته أن هذه الأكلة تحتاج إلى قليل من السَّعْتَر! أما إذا كان الخبر السياسي في الجريدة مهماً لا ينبىء عنوانه بمخبره فـ«أكرج» في تفاصيله. هناك صفحتان أمرّ بهما بغير توقف هما الاقتصاد والرياضة، أما ما عداهما فأنا بالمرصاد لكل شاردة وخاطرة.

ولست معنياً بهذه المطالعة لأني أحفل بالسياسة، فقد زهدت فيها وبمناصبها منذ يفاعتي. شغفت بالعِلم، وأبعدتني مثاليّتي عن واقعية السياسة وضروراتها المكْياڤلّيّة. على أني مواطن من هذا العالم، وكل ما يدور فيه يعنيني بهذا المقدار أو ذاك. وبالتالي فليس كالصحافة رافد جيّاش للتعرف على نَبْض العصر الذي نحياه. أحد أصدقائي من الكتّاب عدو للجرائد لا يقربها كأنها الفحشاء والمنكر. والطريف أنه يكتب القصة، ولكني ألاحظ أن قصصه متخلفة عن إيقاع الزمن، زمننا. وفي ظني أن أحد أسباب هذا التخلف يكمن في إغفاله فائدة الصحافة. إن بلزاك كان يعود إلى ملفّات الشرطة لاستلهام أحداث بعض رواياته. وفي الصحافة

نعثر على مرآة كبرى تعكس يومياً ما يموج في دنيانا المتعبة من هموم وطرائف وجرائم ومجازر بحق الأفراد والشعوب. لا حاجة لصديقي القاصّ أن يتخيل، فحياتنا الراهنة أخصب بأحداثها المتلاحقة من أيّ خيال نصطنعه وأغرب!

إن عهدي بالكتابة في الصحافة ليس جديداً، فقد كنت فتى صغيراً عندما أدركتني هذه الحرفة المحببة إلى نفسي. وما زلت أذكر، والضحك يملأني ويأخذ عليّ الآن أقطاري، أني كنت أكتب القطعة وأبعث بها إلى إحدى الصحف، ثم أنتظر نشر هذه «المعلّقة» النثرية في الأيام التالية. ولم يكن جيبي المتواضع يحتمل شراء الجريدة إذا لم تكن «مزدانة» بمأثرتي. لهذا كنت أتناول الصحيفة من الولد البائع، فإذا لم تشتمل على تحفتي أعدتها اليه متعللاً بأن قانون الإيجارات الجديد لم يصدر في الصحيفة بعدُ بحيث تستحق مني شراء لها! وحدث ذات مرة أن واجهني الولد بأن القانون الجديد موجود فعلاً، فرددت عليه بسرعة وبثقة العارف: هذا ليس النص الكامل! سقى الله تلك الأيام، فقد عرفنا فيها معدِن الفرح البريء وجمال الساعات الطلق.

وأعود إلى صحيفتي التي أطالعها كل يوم. أما الناحية الإخبارية فليست مدار بحث الآن، وإنما الهمّ مني منصرف إلى التعليقات والمقالات وبعض الدراسات، والسياسية منها والفكرية بشكل خاص. إذا شئنا أن تكون الصحيفة مدرسة تثقيفية فينبغي أن نراعي أفهام الناس. لا يعني ذلك البتة التبسيط وهبوط المستوى وغيرهما من التعابير الهروبية. المقصود هو الابتعاد عن الحذلقة وعن أساليب المثقفين المحشوّة بالألاعيب الذهنية والمفردات الأجنبية وباللف والدوران والغموض. وهذه كلها عيوب فادحة عندما تعتور المعالجات الفكرية، لأن الفكر يحتاج إلى الوضوح وإلاّ غدا تضليلاً! فالكتابة في الصحافة ليست ترفاً، وإنما هي ههنا واسطة تربوية عظمى لو أحسنّا استغلالها عادت على جماهير شعبنا بالخير والفائدة والتنوير الحقيقي.

قديماً كانت الصحافة العربية تلجأ أحياناً إلى ضليع يصحح لغتها

ويراقب الهفَوات النحوية، وبخاصة أنها كانت لذاك العهد منبراً للأدب، إذ إن معظم نتاج عصر النهضة قد ظهر أولاً على صفحات الجرائد. واليوم بتنا بحاجة ماسّة، خصوصاً في الصحافة التقدمية المنحى، إلى مراقب من نوع جديد يضبط لغة بعض المثقفين - الصحافيين، فلا تصير شؤون السياسة والفكر تحت أقلامهم طلاسم ومتاهات!

(١٩٨١)

والعود أحمد

لستُ من الكسالى لكي أعلن حقي المشروع في الكسل، فإن الشهر المنصرم الذي غابت إبّانه زاويتي عن قُرّائها كان في الحقيقة «إجازة» عمل، فالعمل بالنسبة لي أجمل العبادات وأمتعها. لست أقول هذا تمدّحاً بنفسي، وإنما هو نمط عيشٍ أمارسه ومبدأ حياةٍ آخذ به وأرتضيه. ولست للرافضين لائماً ولا للمتقاعسين مسفّهاً فكلّ في هذه الدنيا حر وطليق من حيث الطبيعة، وكلّ في نهاية المطاف يحصد ما زرع ويقطِف ما بذر ويتمتع بما جنت يداه ويحاسَبُ على ما اقترف أصغراه.

ويخالجني في هذه العودة شعورُ مَنْ يفيء إلى بيته بعد غياب ويرتاد مكتبه بعد هِجْران، فهو كَلِفٌ بالحائط يلمسه والكرسيّ يتحسسه والكتب والملفّات والأوراق يقلّبها بلا هدف معيّن سوى أن يعقد الصلة الحميمة مجدداً بينه وبين هذه الأشياء التي عرفها وعرفته وأَلِفها وأَلِفته فانعقدت صداقة صامتة بينها. وهو يخال أحياناً أن هذه الكتب التي قرأها ونقّب فيها وجرى قلمه تحت سطورها والهوامش منها لم تعد هي الكتب نفسها الشائعة في الأسواق، وإنما قد استقامت لها شخصية مميَّزة وشاع له منها ودّ خالص وصلة دافئة. ولست طبعاً من بدّل بالصَّحْب الكتابَ مؤثراً صداقة الورق على صداقة القلوب والبشر، ولكن صداقة الحرف المشعّ المطبوع هي أيضاً من أبقى الصداقات وأرسخها وأبرّها بالناس والعباد.

وخلال هذا الغياب القسري كنت أفكّر أحياناً بهذه النافذة على البحر وأكاد أهمّ بها وتهمّ بي، ولكن ظروف العمل المتتابع المتدفق كانت تشدّني دون تحقيق رغبتي المِلحاح وتقذف بي بعيداً عن زاويتي الأثيرة. وقد تساءلت بيني وبين نفسي غير مرة: إذا كان هذا الغياب العابر الذي لا يدّ

لي فيه، وقد اضطرتني اليه حاجة دراسية ورحلة علمية لا أملك لها دفعاً أو تأجيلاً، قد أمضّني قليلاً وترك في قرارة روحي بعضاً من شعور بالغُرْبة، فما بال هؤلاء الذين يغيبون نهائياً عن الأوطان ومراتع الصِّبا والخِلاّن، كيف يطيقون هذا الغياب، سواء برِضاهم أو كانوا مجولين عليه؟ إن هذا الغياب «المؤبد» لو حدث وكنت من ضحاياه، لكان كفيلاً، بلا مغالاة أو تهويل، بقتلي ربما وهدر دمي وخنق الآمال الورديّة التي تجول في صدري متنزهة.

لهذا نُدرك كيف أن القرآن الكريم قَرَنَ مبارحة الديار بالقتل، وأن الكثيرين آثروا القتل على الخروج من الديار: «ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم، ما فعلوه إلا قليل منهم». فمبارحة الأوطان ليست مقتصرة على الأماكن التي نتردد عليها والإخوان الذين نبوح لهم بمكنوناتنا الغاليات، هناك، وراء البشر وخلف الحجر، تاريخٌ وغِبْطة وتكوين ولغة وأعماق أين السبيل إلى لُقْياها أو تجديدها؟ ليس الأمر قناعة أو قعوداً عن طلب الأفضل ونِشْدان الأرقى، وإلا لوجب على الناس قاطبة أن يهاجروا إلى البلاد السكنديناڤية الشهيرة بمستواها المادي وتحررها الاجتماعي. ثم، لَعَمري، هؤلاء اللبنانيون الذين قذفت بهم الحرب الأهلية المشؤومة إلى مشارق الأرض ومغاربها يلتمسون عيشاً وراحة بال، أتراهم حقاً حققوا مُنْيتهم وفازوا بالهدوء الحقيقي والهناءة الروحية؟ ليس صعباً على اللبناني عموماً، وهو المشبع بالديناميّة وروح المبادرة والتجارة، أن يصيب العيش الهنيّ هناك وهنالك من بلاد المعمورة، ولكن أنّى له تحصيل السعادة الروحية الضائعة التي استشعرها في ربوع الوطن على علاّته والتي يؤرّق طيفها عليه لياليه وينغّص عيشه المادي المترف ربما هناك، فيقول في دخيلة نفسه وهو مسهّد يأكله الحنين: هكذا كُتب علينا أن نحيا بعيداً عن جنّة الوطن، واضيعتاه ذهب العمر هَبَاء وزوبعة من غُبار وأوهام خادعة!

الوطن، ولو كان قطعة من الرمال والصحارى، فهو الموئل والملاذ ومعقد الرجاء ومستقرّ الأماني ومستودع الطموحات وحديقة العمر

الخضراء. جاء في كتاب «المحاسن والأضداد» لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: «قيل لأعرابي: كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظِلّه؟ فقال: وهل العيش إلا ذاك؟ يمشي أحدنا ميلاً فيرفضّ عرقاً كأنه الجُمَان، ثم ينصب عصاه ويُلقي عليها كساه وتُقبل الرياح من كل جانب فكأنه في إيوان كِسْرى»!

الغُربة قاسية موجعة، وصعب عليّ وشنيع أن أجد نفسي ذات يوم أحيا ساهماً كالقُنْفُذ أتطلّع حزيناً إلى سهوب أوستراليا، أو أتجمّد وقد صرعني الصقيع الروحي وأنا أدفع الأيام الرمادية في البلد ـ الفريزر كندا! وتحضُرُني حادثة أرتعش كلما تذكّرتها، فهي من النوع التشيخوفي (نسبة إلى أنطون تشيخوف كاتبي الأعزّ). وقد رواها لي صديق، أي أنها حقيقية ـ ولماذا هذا التأكيد، ألم يقل بلزاك للكتّاب، على ما أعتقد وتسعفني الذاكرة: تخيّلوا قدر ما استطعتم فالحياة أغنى! فحوى هذه الحادثة أن امرأة أرمنية تعيش وحيدة في الولايات المتحدة، وهي من فَرْط الوَحْشة واللوعة تخرج أحياناً إلى باب بيتها وتقرع الجرس لتوهم نفسها أن أحداً ما يسأل عنها!

وبعدُ، فكل البلاد التي لا ينطق ترابها بلغة المتنبي وأبي العلاء، ولا تتكلم أرضها بلسان مارون عبّود وطه حسين، هي بلاد عزيزة إلى حين وجميلة إلى حين، فالعَوْد دائماً إلى صدر الوطن أحمدُ وأسلم وأعزّ وأجمل. وللمناسبة فالعَوْد إلى فَيْء هذه الزاوية هو أشبه بالجلوس تحت شجرة يعرّش عليها اللّبْلاب، فهلمّوا نجلس في ظلالها كما تعوّدنا منذ حين صبيحة كل أحد.

(١٩٨٤)

أدباء الحبر وأدباء الحياة

هو شاعر نظّام تسمعه فلا تؤخذ به وإنما أنت كالسامع لأنه هو شارع لا يفتر في الهجوم على أذنيك خدشاً ولذوقك نهشاً. وتقرأه لأن دواوينه بين يديك مطروحة وعلى سطح مكتبك مهداة «ملقوحة»، فتفتحها في ساعة فراغ وسأم لئلا تكون في وفائك متّهماً أو في أحكامك جائراً متجنّياً. ومن منا لا تأخذه عاطفة جموح ذات مرة أو حُكْم يكشف الزمن اهتزازه أو النسبيّة في صوابه، إلا أن يكون مكابراً وللصدق مجافياً.

ولكن شاعرنا أسلم لي عبر لقاء مفتاح سرّه. قال، منشرح الصدر، إنه عندما يكون على أُهبة الولادة ـ فصاحبنا ولله الحمد هو الحبلان والنطاسيّ المشرف على ولادة القصيدة معاً ـ فهو خلال فترة «النِّفَاس» يطالع في المعجم! إنه لا يفعل ذلك بحثاً عن اسم ميمون لمولودته الغرّاء وإنما ليتنشّق عبير الكلمات وشذا التراكيب وليحصّل ذخيرة، ثم يهجم عليه «الطَّلْق» ويكون «المخاض»! لهذا فأنت لا تملك بعد مطالعة هنا وهناك في صفحات دواوينه ـ وهو بطبعه ولود ـ سوى أن تنفض من أصابعك هذا المخاض اللغوي العاثر، ولا تملك إلا أن تقول: أفٍ له يسيل من أعطافه حبر المعاجم!

فلا هو شاعر مُطْرِب مرقّص، كما كان القدامى يعبّرون، ولا هو لغويّ يقوّم من ألسنتنا أَوَدَها. سامحه الله، أين نضعه وفي أيّ طَبَقة من الشعراء نصنّفه؟ ولسنا من هواة التصنيف، ولكن الموضوع محرج، والكاتب الكاتب لا يدفعك إلى هذا الصنيع وإنما أنت مبتلٍ به عندما تقع على أدب بارد يقول ولا يُفصح، فهو ورق مهدور وحبر مضاع. ورحم الله القاخوري عمر فقد أسمى أمثال هؤلاء الأدباء بأنهم رجال من حبر

وورق لا من لحم ودم. ورحم الله أستاذنا في الترجمة خلال مرحلة التعليم الثانوي، هذا البدين القصير الذي توفّاه الله في موطنه تونُس قبل يوم واحد من إحالته على المعاش، فلقد كان يسدي الينا النصيحة بأن نقرأ في المعجم لنعثر بين طيّاته على المصطلحات السديدة والتعابير الملائمة ولنغتني لغوياً. ولكنه لم يوجّهنا إلى ذلك لنغدو، لا سمح الله، شعراء!

فاللغة أداة جمالية ذات حُسْن أخّاذ، ولكنها مهما بلغت من الأناقة والجودة والبراعة تظل في نهاية المطاف أداة للتعبير عن مضامين أيّاً كانت، وإلا انقلبت إلى نوع من مُتحف الشمع. تصوّر نفسك ممسكاً بقلم ومكبّاً على أفق ورق أبيض مفتوح الذراعين لتلقّي أفكارك وأشجانك، ثم تصوّر نفسك مقفر الروح من المعاني والهموم، فماذا عساك عندها تخطّ واللغة مع ذلك حاضرة في خاطرك وثروتها مضمرة في نفسك؟ بِمكْنتك عندها أن تسكر، دون ان تُسكر الآخرين، بألفاظ لها رنين وعذوبة، غير أنها في مجموعها لا تعبّر عن تجربة شعورية ومعاناة، وإنما هي طنين إلى انقضاء آن صدوره. وأدبنا في لبنان به داء دفين منذ مطالع القرن هو التعبّد للكلمات في طقوسيّة نكاد ننفرد بها عربياً، وعلة ذلك «الغنى» اللغوي كما نعتقد هو الفَقْر الثقافي.

عندما يكون صدر الأديب مفعماً بالمعاني فإن اللغة تنقاد له في طواعية، بدليل أن بعض المفكرين لم يكونوا مؤهلين لأن يصبحوا كتّاباً بالمعنى المهني للكلمة، غير أن تمرّسهم بالتعبير عن آرائهم أسلس لهم عِنان اللغة وأعانهم على تجويد صياغة فكرهم. فمتانة التعبير عندهم متأتية أيضاً من متانة التفكير. ولا أدري إذا كان ما نعانيه في أدبنا اللبناني من نقص مدقع في القِصّة والرواية مردّه إلى هذا الداء اللغوي أو التعبّد الكلامي، مما يتنافى على طول الخط مع تِقْنيّة القِصَص. وأنت إذا طالعت قصة طه حسين «الحب الضائع» تخرج منها وكأنّ بك شعوراً خفيّاً لتنفض عن ثيابك نِثار الكلمات. فطه صاحب الأسلوب الساحر الآسر، ولكن القصة الاجتماعية تحتاج إلى لغتها الخاصة أولاً، ثم هي نتاج تجربة كاتب خاض الحياة وبلا أحداثها وخطوبها وتفاصيلها، ولم تكن ظروف طه الخاصة

تسمح له بهذا الخوض، ولهذا جاءت قصته وكأنها مونولوج لغويّ طويل.

لذا فإن التهمة التي راجت في أوساطنا لوقت مضى وانقضى من أن بعض الأدباء هم من سكّان الأبراج العاجية مغلوطة أصلاً، ومنبعها سياسي وليست ذات جذْر أدبي. فليس هناك كاتب، مهما كان هواه الاجتماعي، خارج دورة الحياة ومعترك البشر. قد تتفق آراؤه مع طموحات هذه الطَّبَقة أو تلك، لكنه من سوق الحياة يغترف، سواء كان أبطاله نبلاء أرستقراطيين أو بورجوازيين طامحين أو عمالاً كادحين. وتختلف النظرة بين كاتب وآخر إلى كل طبقة من هذه الشرائح الاجتماعية تاريخياً وفكرياً، لكن هذا لا يمنع أن مادة أدب الكتّاب الكبار جميعاً مستقاة من مَجَرِيات المجتمع وشواغله وأزماته. ولهذا فإن هوى «بلزاك» الملكيّ لم يحلْ بينه وبين كتابة أجمل ملحمة للمجتمع البورجوازي وهو في معترك خضّاته. وشاء بعض النقاد التقدميين أن يرموا نجيب محفوظ بـ «طُوْبة» البورجوازية الصغيرة، لكنّ من قرأ ثلاثيته وأعماله المتدفقة أيقن أن المحاكمة السياسية للأعمال الأدبية تجني أحياناً على الإبداع جناية منكَرَة.

وعندما كان نيكيتا خروشوف في قمة مجده ألقى تقريراً في الكتّاب والمبدعين عن الأدب والفن وكأنه يتعامل مع مزارعي الشمندر والبطاطا. فكان أن وثبت إحدى المؤسسات غير البريئة في بيروت على هذا التقرير وأصدرته في كتاب، لا تبغي من ذلك طبعاً نشر الأفكار الاشتراكية وإنما لتُمسك بهذه الوثيقة دليل إدانة وتشهير بمن يسيئون إلى الإبداع ويسيّسونه على نحو مبتذل. هل معنى ذلك أن الإبداع خارج عن السياسة، لا فكل ما في الحياة يتضمن بشكل أو بآخر معنى سياسياً أي معنى اجتماعيا. ولكن ما يصحّ في حقل لا يجوز في غيره، وإلا فلماذا اختلفت القوانين وتمايزت بين ميدان وآخر؟

كل الكتّاب يسبحون في بحر الحياة كالأسماك، ومَنْ يخرج من هذا المحيط الزاخر فهو ملاقٍ نهاية تعيسة لا محالة، إذ سوف يبتني عندها من الكلمات هياكله المتداعية. سيخرج من لُجّ الحياة ليلج المعاجم يستولدها

قصائده وتأملاته وعواطفه اللغوية. ولغتنا العربية أشبه بالرافعة العملاقة، لكنها تغدو بين جماعة الحبر والورق والمعاجم ناووساً للأدب الذي يرشح بالعَطَن والرطوبة والأنفاس المطفأة والأهواء المتخشّبة. إن الأدب الذي ساد مصر المغلولة خلال الردّة السياسية في السنوات الأخيرة، هو في معظمه من هذا القبيل، وذلك لأن المعاني الكبرى غدت سجينة، فملأ الساحة حملة القواميس والنفوس الصفراء!

ان إلهام الكاتب المبدع يكمن في مجتمعه. وكلما كان هذا المجتمع يجيش بالقضايا الجليلة والأهداف النبيلة كلما حثّ ذلك كله الكاتب على أن يغرف ويرتوي وينفعل وينجذب. ولسنا نقصد من هذا أن نطالب الكاتب بأدب يُدعى تارة ثورياً وطوراً نضالياً، إلى ما هناك من مصطلحات حماسية. فالذين يعتقدون بسَذَاجة أن الأدب الثوري هو وحده الأدب الحق إنما ينفخون في أبواق من قصب. الأدب أجمل تعبير عن أسرار الحياة. وقد يأتي هذا التعبير نشيداً صارخاً، أو غزلاً هامساً، أو وقائع مذهلة، أو خيالاً شارداً، أو روحاً مكتئبة؛ ولكنه في شتى تجلّياته يخاطب الإنسان فينا في صحوه وتعبه، في اندفاعه وإحباطه ثورته وخيبته، في وساوسه وأفراحه، في كل ما يتعاقب عليه سلباً وإيجاباً. وبعدُ فليس مكسيم غوركي ثورياً أكثر من شكسبير أو تشيخوف أو أراغون، إذا صحّ أن هذا المقياس يصلح لمحاكمة الإبداع الأدبي.

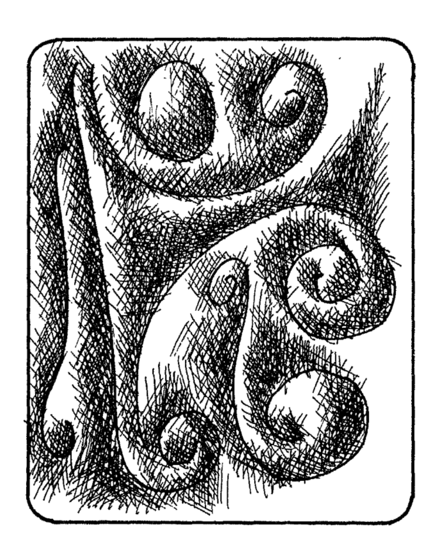
إن الأدب الثوري في معناه الصائب هو الذي يتحدث عن ملحمة الإنسان، هذا الذي يشقّ قلب المستحيل ويُخرج من كبد العَتَمات نوراً. ولكن هذه الملحمة الاجتماعية ليست ورديّة على الدوام، فكم فيها عند وقوفنا على التفاصيل من خيبات وانتكاسات، من ارتداد وتقهقر، من وقفات تساؤل وتفتيش ومرارة. والأدب هو هذه الدوائر الرمادية كما هو أجراس الفرح وصيحات الانتصار. وتجربة الحياة هي المَنْجَم الذي يقبس منه الكاتب الخامات لأعماله. وكلما كان المجتمع حافلاً أمدّ الكاتب بالرؤى والأشكال وأغنى تجربته الحياتية. وويل للكاتب من المجتمع المشوّه الممزق الهوية الطعين، شأن مجتمعنا اللبناني، فهو كفيل بتقزيم بعض

الأدباء لأنه يجهض مواهبهم ويقولبها في أغلال الفئوية والطائفية، كما أن قضايا هذا المجتمع المتخلفة عن روح العصر تقعد بالأدباء الواعدين وتطفىء اللهب بين ضلوعهم.

ولا أدلّ على ما ذهبنا اليه أن كبار أدباء لبنان الذين عرفوا شهرة قومية هم الذين ترعرعت عموماً مواهبهم خارج الوطن، وذلك في مصر أو المهجر، لأن هذا الإطار الجديد حملهم إلى الهواء الطَّلْق ومعانقة القضايا الأرحب، شأن مطران، أبو ماضي، فرح أنطون، وغيرهم. وكم من أديب لبناني جنى عليه هذا الوطن بسبب ضيق الأفق الذي يسعى بعضهم أن يحوّلوه إليه وإلى أن يمسخوا قضيته الوطنية والاجتماعية. ورئيف خوري هو في نظرنا مثال ساطع على أديب ذي مقياس رحب، لكن مجتمعه بشِنْشِنته الطائفية وهويته المهزوزة قوقع إمكاناته ولم يكن الصدر الواسع الذي يحتضن طموحاته. في حين أن الأدباء العرب من غير اللبنانيين الذي هجروا وطنهم لدوافع شتى كانت الهجرة قاضية على سيرتهم الأدبية، لأنهم فقدوا النبع الثرّ الذي منه يرتوون. وأحمد زكي أبو شادي الذي ترك مصر إلى الولايات المتحدة مثال على هذا الضرب من الهجرة القاسية التي تقتلع الكاتب من جذوره الأصيلة وترمي به في غيهب الضَّيَاع.

(١٩٨٢)


ذکریاتِ جنوں



الصقيع

«وجيه» هو وجيه الرأي في اعتزامه الهجرة إلى كندا. لقد تَلِفت جملته العصبية من صراع أهل البيت الوطني الذي لا منطق له ولا مسوّغ، فهو مسرح اللامعقول في بلد كل ما يجري على ساحته يبدو عجائبياً! وهناك في كندا دولة حقيقية سوف تحتضن أشباله الثلاثة وتأخذ بيدهم في مراقي العِلم ومراتب المعرفة مهما علت. أما العِلم ههنا فبورصته في تصاعد مخيف، مما قد يقعد الأب العطوف عن النهوض بأعبائه ذات عام قادم إذا ما استمرت أقساط بعض الجامعات في ازدياد وتضاعف. فالعلم في بلـد التجـارة هـذا سِلعـة تنطبـق عليهـا قـوانين السـوق، ولا رحمة للمقصّرين مالياً. و «وجيه» يبحث عن نافذة الأمل في حاضرنا فلا يعثر لها على أثر، ويصطدم بجدار أصمّ كئيب أعمى! وهو لا يهاجر سعياً وراء الأموال إذ من قطع حيطان الأربعين أو كاد لا يبحث في القارات البعيدة عن ثروة، وإنما مبتغاه عيشة كريمة آمنة ومستقبل لأولاده بعيداً عن فُوْهة بركان تحسبه مطفأ وما هو بمطفأ، ومفاجآت مذهلة تأتيك من حيث تحتسب وتفد عليك من حيث لم تحتسب أبداً!

أما الزوجة «ماجدة» المرحة الضحوك المقبلة على الحياة فهي تغدو رويداً رويداً كنديّة قبل أن تطأ قدماها أرض الاغتراب وتُمنح بموجب التأشيرة الميمونة البطاقات والعهود والحقوق! هي تعرف أن كندا باردة باردة، ولكن ما تخشاه وشرع يحفر أسى في صدرها هو الصقيع الروحي. فالبرودة العالية تحت الصفر تكافحها بالتدفئة المستمرة التي لا مفرّ منها معظم فُصول العام، ولكن من أين تأتي بالدفء لقلبها هناك في سهول الصقيع المزمن والغربة القاتلة؟ ليس في هاتيك البلاد أَمَ تحجّ اليها كل

يوم منجذبة متولّهة بحنان وجهها الوديع اللهوف. ليس في بلاد الثلج الدهريّ أخت تهتف لها تسأل عن صحة الأولاد وأخبار البيت. ليس هناك أخ يدخل زائراً، ولا ابنة خالة تتصل مشوقة إلى لقاء، ولا صديقة تستفسر وتبرع تحملها الخفقات... فالمستقبل الموعود هو الثلج والصقيع والوحدة والحنين والوطن المضاع والأيام الرمادية والشمس الغائبة. هو الدموع المالحة يلعقها الإنسان في كآبة، والقلب الذي تكلّست حوله الثلوج!

وتتطلع إليّ الزميلة حَيْرى وقد بهت محيّاها وتسربت إلى أساريرها خيوط الحزن غير المألوف عندها، وكأنها تسألني المشورة وتستنجد برأيي: يا أختاه لم ألبس في حياتي مُسُوح الوعّاظ ولست معتزماً أن أفعل. ولست بعدُ سوى بشر يألم لما تألمين ويفرح مغرّداً لما يفرح له الناس. ولن أقول لك في لهجة مأساوية تستوحي مواقف يوسف وهبي على المسرح في صوته العريض الأجشّ المرتعش: «يا بنتي، يا ماجده، حياة الإنسان من حياة عياله، وحياة عياله من حياة وطنه»! حيّا الله راسبوتين الخشبة العربية، ولكن دوره المدوّي أضحى قطعة من التاريخ المنطوي، بدليل أن يوسف وهبي عندما وفد على بيروت وقدّم، لعشر سنوات خلت أو أكثر، في سينما أمير (قبل ان تتحول إلى مكتبة ودار نشر) مسرحياته الشهيرة التي جلبت له أكاليل المجد، بدت هذه الأعمال غثّة لا تنطوي سوى على جلبة وعياط!

وبعدُ، فالهجرة مرض لبناني أصيل قد أملته الظروف الصعبة التي عصفت بأهلنا في القرن الماضي والراهن، لكن عدواه انتشرت ولا دولة تبالي عندنا، وجاءت الحرب الأهلية ذات الأرواح السبع لتجعل من هذه العدوى جرباً مستشرياً. والإنسان العادي يهاجر عندما يجد نفسه على الحديدة والأرض وقد سُدّت في وجهه المنافذ، فيُقدم على هذه الخطوة مكرهاً سعياً وراء لقمة العيش الهاربة. ولا أتحدث عن المهاجر طلباً للثروة الطائلة، فهو في جموع المهاجرين استثناء وليس قاعدة. وعندما يجوع المرء في وطنه يكفر بالقِيَم ويخرج منه هائماً. والدليل القريب أن المصري لم

يعرف الهجرة في تاريخه، برغم الفَقْر العريق المستوطن على ضفاف النيل، ولكن السنوات الأخيرة حملت له إلى ذلك الغلاء الفاحش والمجاعة الضمنية. فإذا بملايين المصريين ينتشرون الآن في أصقاع الوطن العربي الكبير. والمثال اليابي ماثل أمام أنظارنا، فلا ينزل المرء مرفأ على وجه هذه الأرض إلا ويعثر فيه على صنعانيّ يكدّ لتحصيل الرزق. وفي هذه الدنيا ملايين من المهاجرين الأتراك واليونان والطليان، هجروا أوطانهم بحثاً عن وطن جديد. وظل الوطن الأصلي عند الأوائل جرحاً غائراً وأغنية دامعة وحنيناً مرهفاً كحد السيف، في حين أن الأبناء وأبناء الأبناء تبنّوا الوطن الجديد وغدا وطن الآباء والأجداد مجرد ذكرى بعيدة يلفّها الضباب.

وأنتِ، يا ماجدة، لستِ تفتقدين العيش الهانيء في ربوع الوطن، فوجيه يعمل وأنت تعملين، والأولاد يتعلمون. أما مستقبل تعليمهم فالأبواب ليست موصدة تماماً بالنسبة إلى الطلبة الفالحين. وها أن كلية للطب جديدة قد فتحت أبوابها هذا العام في بيروت، ولا ندري ما تحمل الأيام من جديد. وها هو العالم الاشتراكي على وسعه يتخرّج فيه كل عام آلاف الاختصاصيين الأكْفاء. وها هي المؤسسات المختلفة ترصد المِنَح. لستُ أعرض لوحة وردية، ولكن أيّ غُنْم أن يسعى أحدنا إلى كندا لتأمين التعليم الجامعي لأولاده، في حين أن هذا الرحيل قد يكون سبباً في ضَياع أبنائه منه! بمعنى أنهم سيصيرون لا محالة، وما زالوا الآن صبياناً، كنديين قلباً وقالباً ولساناً. فهذه ضريبة الهجرة القاسية، وهذه هي الغربة الحقيقية!

أما الأمن والفلتان والقذائف والسيارات المفخخة فهو قَدَر غير رحيم قد ابتُلينا به، وربما صنعناه بأيدينا. ولسنا أول شعب يعاني، فعلى درب الآلام الدامي سارت شعوب وعانت بما لا يقاس أضعافاً مضاعفة لما نستشعره ونقاسيه. كانت الحرب العالمية الثانية كُتْلة عذاب على مدى القارة الأوروبية من أعالي الأورال حتى شواطىء المانش. والملحمة الفيتنامية أقرب إلى الخيال في حروب التحرير. والمأساة الكمبودية تكاد لا تصدَّق. وشعوب أميركا اللاتينية تحارب المحال وتنتصر برغم النكسات

ومحاولات الإبادة.

لماذا هذا الشرح الطويل الذي قارب تخوم الوعظ الذي أبيته فكدت أقع في أشراكه! باختصار: أنا لن أهاجر، لن أهاجر، لن أهاجر. وكيف أفعل وأحد مستندات دائرة الهجرة الكندية المعروضة على الراغبين في الرحيل يقول في كلمات قاطعة لا تحتاج إلى مزيد من القول: «إعلم أن الهجرة اقتلاع»!

(١٩٨٢)

ماذا نروي لأطفالنا؟

الأطفال في لبنان الحرب الأهلية المديدة فتحوا عيونهم على الدمار والهلع وتكتكة الرصاص وضجيج المدافع وسخط الراجمات. وتكرّ الأعوام ويُوْرق غصن الأطفال، وننسى في حديثنا معهم أنهم أبصروا النور في عاصمة لم يشاهدوها، لسبب بسيط وفاجع وهو أنها غدت حُطَاماً مشوَّهة وهياكل مفزعة وبُقْعة تجول فيها الأشباح منذ تسع سنوات، أي أن عمر خرابها من عمر أجسادهم الطريّة. ساحة الدبّاس، ساحة الشهداء، الصَّيْفي، باب إدريس، شوارع فوش، اللنبي، الحويّك، البورصة القديمة، المالية القديمة، وغيرها وغيرها من الأماكن لا تعني في ذاكرة أطفالنا شيئاً. ونحن مع هذا نتحدث عن الأمس القريب القريب الذي يغدو مع توالي الأيام والآلام وكأنه آتٍ من البعيد البعيد.

ولن يخطر في بالنا أن نحكي لِفلَذ أكبادنا عن بيروت بعد الانتداب الفرنسي عندما كانت السَّرَايا العثمانية ما زالت قائمة في الطرف الشمالي لساحة البُرْج، قبل أن تصبح، ولك أن تتصور مدى التخلف، مَرْأباً للسيارات الذاهبة إلى ضبيّه وإنطلياس! وكانت الساحة، قبل أن يغزوها النصب الإيطالي المجلوب وكأنه طعنة لشهدائنا وليس تكريماً، حديقة جميلة يستريح فيها الناس ويلهون، وفي المناسبات الوطنية تحتشد ليلاً بالمواطنين يشاهدون الأسهم النارية وهي تنطلق وتنهمر عليهم بهجة وزينة. والكلام على الترمواي في بيروت الأمس مفرح ومسلّ لأطفالنا، ولكن من أين لهم أن يدركوه وقد قُلع في غير حق أو منطق قبل أن يَفِدوا مُكرهين على هذه الدنيا. فلقد كان هناك خط للترمواي ينطلق من فرن الشبّاك ويصل إلى رأس بيروت مروراً بساحة الشهداء والجامعة الأميركية، وكان

ثمن البطاقة خمسة قروش. وكان هناك خط آخر بين الحرج والدّوْره ويدفع الراكب فيه خمسة قروش إذا شاء الوصول فقط إلى ساحة الشهداء، مروراً بالسُّور الذي كان يحتل ساحته في ما مضى بناء كبير يعلوه القِرْميد هو سوق «الهال» (وهذا اصطلاح فرنسي الأصل). ومن أراد متابعة السكّة من ساحة الشهداء حتى الدّوره فعليه أن يدفع خمسة قروش إضافية. هذه التعْريفة هي للمقاعد الخشبية، وفي وَسَط الحافلة مقاعد منجّدة تتضاعف فيها التعريفة لأنها «بريمو». والحافلة التي تصل الحرج كانت، في سبيل أن تعود من حيث أتت، تسلك شارع مستشفى المقاصد ثم تنعطف يساراً عند أول طريق ضيّق يؤدي بها قرب المدخل الرئيس لمدرسة بيت الأطفال. وكان هناك ليلاً، عند آخر هذا الطريق الضيّق، دُكّان على اليسار يضع صاحبه على الرصيف نارجيلة طهمازيّة مزدانة بأضواء «النيون»!

أما لماذا نأسف لذهاب الترمواي فلأنه وسيلة نقل لا تفنى، وعِوَضَ اقتلاعه كان الأجدر بالسلطة المصونة أن توسّع الشوارع التي يسلكها الترمواي، بحيث تصبح هذه الوسيلة للنقل قدر الإمكان عند جانب الشارع لا وَسَطه. وكان الحل المناسب هو المزيد من الطرقات الجديدة، والمزيد من الجسور، والمزيد من المعابر تحت الأرض. وتخيّل لو أن الترمواي ما زال يجري على خطوطه القديمة وامتد إلى الضواحي وإلى المطار وإلى جانب الأوتوسترادات المستحدثة، ألم يكن، بالإضافة إلى غيره من وسائل النقل، يؤدي الخدمات الجمّة؟ ولكن كيف لا يُلغونه وهو الأبديّ بجديده وصُنْعه، وإخال أنه كان بلجيكيّ المورْد، فكيف تتم الصفقات والعمولات وهو الحي الباقي؟ وأول أوتوبيسات وردت إلى بيروت دبّ فيها الهَرَم سريعاً، نتيجة إهمال الصيانة على الأرجح، بحيث كان من المألوف أن تراها معطّلة هنا وهناك. وهكذا بدل أن تؤمّن النقل عرقلته! ثم تحولت، بحمد الحرب الأهلية، إلى متاريس. أما الأوتوبيسات التي تلتها فقد كانت هدية درجة ثانية من الحكومة الفرنسية، لأن هذه الباصات الكبيرة سبق لها و «كرجت» في شوارع العاصمة الفرنسية، وكانت ما

تزال تحتفظ على جباهها عندنا بأسماء المحطات الباريسية. وبالتالي فهي هدية مستعملة غير بِكْر، ويعلم الله أين صارت بعدها! ثم اشترينا مجدداً أوتوبيسات جميلة وأطلّت علينا منذ حين، واختفت مع شيوع الرصاص والمدافع، على أمل العودة عندما يخيّم الهدوء ويستأنف الوطن مسيرته. قُلْ إن شاء الله.

ماذا نروي عن عالم يكاد يندثر، ولم يبقَ منه سوى نُتَفٍ في الذاكرة المرهقة نتعلل بها، وهي تطفو أحياناً من لاوعينا حيث تترسّب. ولكن نحن الكبار لنا زادنا من اللقطات واللفتات، وحبل الذكريات ما برح يشدّنا بحنين وحنوّ إلى زوايا مدينة محترقة لفحتها حرب بشعة داعرة. ما زلنا عَبْرَ الذاكرة والصور المتبقية نتسلق دَرَج الأميركان الحجري الذي كان يربط قديماً ما يُسمّى اليوم ساحة رياض الصلح بزقاق البلاط. وأسواق سرسق وأبي النصر والطّويله ما زلنا نجول فيها، ويحلو لنا أنْ نقف عند نهاية سوق إياس نشرب الجُلاّب أو نلتهم القطائف عند البِركة. ومن سوق الجوخ نهبط السُّلّم الطويل الذي يُفضي بنا إلى خان أنطون بك. أما أطفالنا فماذا في ذاكرتهم غير النار والخوف؟ ماذا في أعماقهم التي تحدد مصائرهم غير أحاديث القتل عند حاجز يتفحص الهويّة ويدقق ليس في رقم السجل، ولا ليتحقق في ما إذا كان صاحب التذكرة متأهلاً أم أعزبَ، وإنما نظر المسلّح الغَضُوب يذهب توّاً إلى خانة المذهب!

وفي علم النفس أن القطاع اللاواعي يتحدد في مرحلة الطفولة، وله تأثير خطير على مجمل حياة الإنسان بعدها، إذ اللاوعي هو النَّوَاة الأساسية في البُعد الذاتي عند المرء. واضطراب اللاوعي يؤدي إلى الاضطراب النفسي، ومن أين لك بالطبيب الذي يغوص مستكشفاً حقيقة هذا اللغز الذي هو اللاوعي، ليتمكن عندها من مداواة ما قد تكابده الجملة العصبية عندما تهتز؟ هذا مع العلم أن الدارسين يقولون إن ديناميّة الحياة اللاواعية عند إنسان بلداننا المتخلفة ما زالت حقلاً متروكاً لم يُكِبَّ عليه الباحثون لاستخراج خصائصه وتحديد بُنْيته. وقد جرت منذ فترة قصيرة تجربة استوقفتني كثيراً بدلالتها. إذ إن طلاب معهد الفنون الجميلة في الجامعة

اللبنانية، الفرع الأول، قد قاموا بنشاط ترفيهي لمئات الأطفال المهجَّرين الذين تركوا الضاحية الجنوبية مع عائلاتهم ولجأوا إلى الأم الحنون، بيروت الغربية، هرباً من القصف الفتّاك المريع. وكان من جملة هذا النشاط الترفيهي الفني أن قرأ طلاب الفنون على الأطفال قِصصاً لا صلة لها بالحرب بتاتاً، ثم طلبوا من الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثلاث والاثنتي عشرة سنة، أن يرسموا على الورق الانطباعات التي خلّفتها هذه القصص في نفوسهم. فكانت حصيلة ذلك أن الأطفال رسموا «نيوجرسي» المشؤومة، وطائرات حربية ترمي القنابل وطائرات مروحيّة، وصواريخ، وأعلاماً ومنها العلم الأميركي ممزقاً نصفين، ومنازل مظلمة، ومسجداً، وسجناً تشعّ من داخله الشمس...

إن إقدام الأطفال على رسم الحرب أمر طبيعي جداً، إذ هم في أوقات السلم يجنحون إلى «إشعال» الحرب وتمثيلها ورسمها، فكيف بهم الحال والحرب لم تعد تمثيلية وإنما هي حقيقة مخيفة تخضّ أفئدتهم؟ وهذا الواقع الراهن يوضح كم يهبط على أعماق اللاوعي عند أطفالنا من عنف و «وعي» حربيّ وقساوة. وحريّ برجال التربية في مُقبل أيامنا، هذا إذا هدأت الأحوال واستقام الوضع وانتصر العقل والحس السليم، أن يُعْنَوْا جدّياً بهذا اللاوعي الذي تكوّن لدى أطفالنا، والذي يظل في الغالب خفياً غامضاً غير مرئيّ، ولكنه وَفْقَ علم النفس يقرر المصائر ويخطّ أفق المستقبل لأجيالنا الصاعدة.

يزفر الكبار أنفاساً حَرّى قائلين إن هذه الحرب الأهلية ذات السبع أرواح قد قضت على آمال برّاقة كانت تجيش بها صدورهم، وإن شَعْرهم المصفّف بات أبيضَ ذابلاً، وترنّحت مشاريع وتهافتت، وأضحى مجرد البقاء هو المطمح والهوى. وأطفالنا كوتهم الحرب أيضاً واعتصرت أيامهم الزاهية، هذا إذا لم تقذف بهم إلى لُجّة الجحيم. وفي قاع اللاوعي لدى أطفالنا تعوم الألغام وتنتصب المتاريس وتنطلق المدافع بدويّ صامت! وينبغي أن تتبدل الحال، إذ لا شيء يعلو في الأهمية والقداسة على هؤلاء الأطفال، لأن حياة الوطن من حياتهم ومستقبله

معقود على سلامة نفوس هذه البراعم الطالعة في وجه الشمس. وما دامت « الصيغة » هي الصيغة عينها، و « الميثاق » هو الميثاق إياه. وما دام الدستور والأعراف والمواضعات هي إياها، وما دام هذا « الكرنفال » الذي يتشكل منه لبنان العتيق المتهرىء الطائفي القَرَوَسطيّ ينيخ بثقله على المطامح والأرواح، فلا قيامة عندها لهذا البلد من دوّامة الحروب الأهلية المتجددة. فسّحوا المجال للعَلْمانية، وافتحوا الشبابيك على مصراعيها للبنان الجديد الديمقراطي، وإلا فإن الأجيال النامية ستختزن في لاوعيها رُكاماً من البشاعات والأزمات والتشنّجات هي أدهى وأرعب من اللوحة المخبوءة عند أوسكار وايلد في روايته الشهيرة « صورة دوريان جراي »!

(١٩٨٤)

«نوستلجيا»

في ظلّ وارف لشجرة خضراء حمراء تمدّ أذرعاً متشابكة فوق رأسي جلستُ زَهقانَ شَقْيانَ حَيرانَ أُقَضْقِض الألم كلاعق المِبْرد وأستشعر الكآبة إذ كيف يفوتني مرض العصر ولا أكون من خُطّابه، وقديماً تلذّذ الرومنطيقيون الحزن وتفنّنوا في تعاطيه جَرَعات وصَرَعات. كنت، على حد تعبير المصريين، « عبيطاً » خَبَله الحَرّ والحزن واليأس « عقلو بيحاكيه شمال يمين »، يكرّ عليّ ابني الصغير بأسئلته الجميلة المتفحصة المتسائلة المكتشفة فما أملك لها جواباً غير مزيد من البلبلة. وأتذكر عندها قول « باسكال » عن الإنسان: « إنه عبارة عن قصبة جوفاء... ولكنه قصبة عاقلة ». ولم أكن في حالتي غير قصبة مهتزّة تختزن الإحباط والتشوّش والفراغ والاضطراب. كنت بحاجة إلى الصمت وإلى صديق ـ ولأن تكون سديقة أوفى بالمَرام وللقلب أشرح ـ يداوي جراحي بالكلام وحكايا الأيام. ترياقي « كلمة بتحنن » وليس « كلمة بتجنن »، وحديث هامس هو أشبه بصمت النجوم ووشوشة الجدول الجاري. كنت نظير الزجاج مكتوب على جلدي إحترس فهو حسّاس، « ما تلقّنيْ بتشقّنِـيْ »، وإياك واللجاجة والخصام إذ « كِترْ الدقْ بيفكْ اللحامْ ».

وفي حالة رمادية كهذه تدهم المرء « نوستلجيا »، حنين إلى الأيام الخوالي، فيستعيد الذكريات نُتَفاً تخطر على باله، صوراً تنبثق في خياله فجأة صافية وكأنها المياه تنبجس على حين غِرّة من باطن الأرض، فيتساءل دَهِشاً: أيّ عقل باطن راكم هذه النُتَف والصور عُقُوداً من الزمن ثم بعثها على شاشة الحاضر، شأن الكومبيوتر تضغط عليه بزرّ فَيُبرز لك معطيات احتفظتَ بها لوقت مضى في تلافيفه. ولكن أين الإصبع الضاغط

في مجال العقل الباطن، وأيّ عملية توافق ومزامنة تتم تلقائياً وآلياً بين الشخص المتأمل وماضيه المحفوظ؟! وهكذا انثالت على خاطري تلك «الأوستن» السوداء الصغيرة تتخطر وتقف. تسير وتتعطل، تدرج يوماً وتنتصب زمناً قائمة حزينة وحيدة غبراء. وكان يملكها أحد أصدقاء «شِلّتنا» في مرحلة التعليم الثانوي وكنا ندعوها «الأميرة». ونَدَرَ مَنْ كان في الخمسينيات يملك سيارة بين الطلاب الثانويين بَلْهَ الجامعيين، حتى الأساتذة فإنهم بغالبيتهم العظمى كانوا يمشون على الأقدام طلباً للمدرسة ويستقلون الترام ـ لا رحم الله من تسبّب بزواله ـ في تنقلاتهم.

ولم تكن «أميرتنا» شأن سيارة «الفورد أبو دعسه» سهلة مطواعة، حتى أن بعض سائقيها العموميين كانوا يذكرون بعد زمن من انقراضها أنها كانت تسير أحياناً بالماء إذا عزّ البنزين! وهكذا كنا نحتاج لتموين أميرتنا بالوقود نشتريه من المحطات، ولكن من أين لنا المال وجيوبنا المتواضعة تكاد تكون نظيفة مطهّرة مؤمنة، إذ لم يكن من مألوف عادتنا أن نرهق أهلنا بالمصروفات الخاصة ولو كان المال موفوراً لديهم. وإن أنسَ لا أنسَ مشهد صديقنا صاحب الأوستن نجمع له القروش فيمضي وهو يُمسك بقنينة فارغة إلى المحطة يملأها بحجة أنها لضرورات البيت، ونحن نراقبه عن بُعْدٍ والضحك يسري في صدورنا والنِّكات بنت ساعتها تنهمر من أفواهنا. حتى إذا ما عاد صاحبنا يكاد يتعثر بخطاه صببنا القنينة في بطن الأميرة وانطلقنا نترنح في طرقات مدينتنا على متن سيارة شبه سكرى، بسبب التهرّؤ والحاجة إلى التصليح، وبسبب من قيادة صديقنا فهو يتعلمها بنا! ولكن مَنْ يبالي والبهجة تضج في داخل الأميرة، والتعليقات الساخرة تتوالى، والحياة آمال عِراض وغرق في العِلم وفرح غامر بل ورقص أحياناً.

وكان من دأب صاحبنا إياه أن يحتفل بعيد ميلاده وأن يختلق المناسبات لإقامة الحفلات، فأيّ فرصة ذهبية عندما نُمضي بعدَ ظهرٍ راقصاً نهرج فيه ونمرُج برقصة «الرومبا» و«الباسا دوبليه» ونختال متمايلين على أنغام «الڤالس» وننتشي بإيقاع «التانغو» الفاتن الساحر. حتى

إذا ما لاح المساء وقاربت الحفلة إلى انقضاء ، تسللت موسيقى « السلو » المتباطئة تعمر أفئدتنا بالحبور وأجسادنا بالدفء ونتزوّد بوَقُود روحيّ يكاد يكفينا شهراً ، سَمَراً بمَجَريَات الحفلة واستذكاراً لطرائفها . خصوصاً أن أحد أفراد عُصْبتنا كان يختلط عليه الأمر بين أنواع الرقص ، ولم يكن يكاد يُحسن سوى نقل خطوات التانغو ، ولهذا فكما أن العرب البدو كانوا يحسبون البضائع كلها صابوناً ، فإن زميلنا كان يخوض الساحة راقصاً الأنغام كلها على وقع خطوات التانغو ! سَقْياً لتلك الأيام البريئة الباسمة فهي ، شأن عمرنا المتفلّت من أيدينا ، لن تعود ، إذ هل يعود النهر عن جريانه أو تعاود أمواجه المسيْل كَرّة أخرى ؟

(١٩٨٤)

زمن الحلاب والصر

هناك تعريفات كثيرة للإنسان، ولا عجب ففيه انطوى السر الأكبر وسيظل لغزاً محيّراً للعقول والأجيال. على أن ما يحضرني ههنا رأي الكاتب الإنكليزي «هَزْليت» الذي عرّف الإنسان بأنه حيوان ضاحك. شكراً مضاعفاً لهذا السكسونيّ، وخصوصاً أن بني قومه يشتهرون بالتحفّظ والضحك المقتَضَب المدروس. ولولا هذه النعمة التي منحتها الطبيعة للإنسان لمات يأساً وقهراً في ظروف جمّة تمرّ به أو يمرّ بها. وبالله عليكم هذا الشعب اللبناني الموضوع على الصليب منذ ما ينيّف على عَقْد من الزمن كيف كانت ستؤول به الأحوال لولا طاقة المقاومة العجيبة التي يختزنها بين ضلوعه، ومن ضمن هذا الرصيد الفعّال يطفو الضحك، الضحك بأنواعه. وربَّ سائل: وهل لمادة الضحك ضروب وأنواع؟ هل ستفلسفون الضحك فتقضون حتى على هذه البقية الباقية لنا من مَتَاع الدنيا الذي قضت الحرب الأهلية على معظمه فكدنا نمسي عُراة؟

صبرك يا أخي، سواء كنت قابعاً في زاوية من البيت تحسبها محصّنة أو لائذاً في ركن من ملجأ عامر ببضائع التجار المكدّسة لساعة العُسْرة المربحة، وقديماً قالوا عند «اختراع» الطبقات: مصائب قوم عند قوم فوائدُ! لن تجدني ساعياً إلى «برغسون» لأفسد عليك صفاء هذه النعمة التي لم يهددها سيف الغلاء ولم تغدُ بعدُ سلعة نادرة للمتاجرة شأن البنزين والخبز وغيرهما من المواد التي قد تستجد، ما دام أن الحرب على ما يبدو مديدة، ولا يُحمد على مكروه سواه. وفي الزمن الغابر كره عنترة، رحمات الله عليه، الحِلاب والصَّرّ، ولو أنه بُعث في

أيامنا لربما استدعى الأمر منه برهة تأمّل وتفكّر. فالحِلاب، يا سيّد الفرسان، على قدم وساق، ونحن الشعب المكرسَعُ ندفع من جيوبنا، إذا كان هناك بعدُ جيوب، الأتاوى والعَلاوات والسمسرات. وانقلبت الآية، فصار الحِلاب والصرّ علامة فوز وتخمة وصعود على أنقاض المواطنين، ولم يعد شارة على العبودية التي تأبّتها نفس عنترة وانتفضت عليها.

وبعدُ، فالضحك، من غير تنظير، هو ببساطة أنواع وفنون، وسنقف في هذه العُجالة عند ضروب ثلاثة منه. هناك الضحك المنبعث من غرابة ما تسمع، فهو ضحك أقرب إلى الخفوت، تستعيده في ذاكرتك فتضحك، كما نقول، في سرّك. هو ضحك تبتعثه مثل أفعال «أخوت شانيه»، يقول الرأي فيبدو خليطاً من الحكمة والبلاهة. ولكي لا نبقى في سياقٍ من كلام بكلام، في حين أن الموضوع ضحك بضحك، فسنضرب مثلين يجلوان ما نقصد بالضحك الذي نقترح تسميته بالغرائبي.

في المرحلة ما بين أواخر تموز وأوائل آب يمر العراق في كل عام بطقس لاهب خانق يدعونه «البَحّار». ووفد على العراق والٍ عثماني في العهد الماضي، فتململ كثيراً من هذا الطقس وسأل معاونيه عن هذه البليّة وما الداعي إليها؟ فأجابوه أن هذا الحر يساعد على إنضاج البلح. فكان أن أمر الوالي، للخلاص من هذه الورطة المُناخية، بقطع أشجار النخيل كلها! من هذا القبيل أيضاً ما يُحكى عن مدبّر «سرمدا»، وهي قرية في الشمال من سوريا. إذ أدخل ثور هناك رأسه في جرّة مفتوحة الفم، وعندما حاول الناس إخراج قرنيه منها لم يُفلحوا. فهرعوا إلى مدبّر قريتهم يستنجدونه الرأي والمشورة، فأمر بقطع عنق الثور. وعندما أذعنوا لنصيحته وجدوا أن رأس الثور ما برح عالقاً بالجرّة. فكان أن أشار عليهم المدبّر الحكيم عندها بكسر الجرّة!

في هاتين الحكايتين المتقدمتين وفي أمثالهما يختبىء ضحك غرائبيّ دفين يقترب أحياناً من دائرة اللامعقول. وهناك ضحك آخر قوامه

السخرية والاستهزاء والاستهتار بمن توجّه إليه واستغباؤه، وذلك نظير القصة التي تروى عن بشّار، وكان كما هو معروف ضريراً، إذ كان في مجلس الخليفة فسأله أحد أقرباء الخليفة عن مهنته، فأجابه بشّار بما عُرف عنه من سخرية لاذعة وبديهة متوقّدة: أثقب اللؤلؤ! إنه الضحك المستخف كما يحلو لنا أن ندعوه، وقد يشتمل على شيء من اللؤم أو التعالي أو الغرور.

وهناك أخيراً في الأنواع الثلاثة التي رغبنا في تبيانها الضحك الناعم. أو هكذا تتبدى لنا تسميته. ومصدر نعومته أنه غير جارح يتوسل التورية والغمز، ويكشف عن نفس مرحة طيبة ودودة تقابل «اللطش» بمثله في غير تعمّد للأذى أو التحقير. ولعل هذه الحكاية القابعة في جعبتنا، والعائدة إلى أيام المتصرفية، توضح مغزى الضحك الناعم. كان نجم الأسود ونعّوم لَبَكي عضوين في مجلس الإدارة زمن المتصرف أوهانس باشا في مطالع القرن الحالي، وكانا هابطين بعبدا على حمارين. فقال الأول للآخَر: ركب الحمار «لبكي»! فأجابه الثاني: خصوصاً إذا كان «أسود»!

ولعل أحدهم سيستاء من كتابتنا هذه عن الضحك ويقول ما قاله أحد الحضور عندما ألقينا لسنوات قريبة محاضرة عن الانقلاب العباسي: أهذا أوان كلام كهذا ونحن على ما نحن من محنة وظروف مأساوية ودمع ودم وبكاء؟ في المحاضرة أجبت المتعجّب باقتضاب، موضحاً له أن الناس كانوا يتزوجون في عزّ الحرب العالمية وفواجعها وذلك لأن الحياة تستمر من حسن حظ البشر. وأغناني عن الإطالة أن الحاضرين تكفّلوا بالرد عليه واستنكار موقفه فألقموه حجراً. أما ردّي هنا على المستاء المفترَض فهو أن التفاتي إلى ما يدور بين ظَهْرَانينا من مآسٍ ومهازل يدعوني عندها إلى الكتابة عن الضحك الأسود. إذ، ناشدتك الله، هل تعتقد أن الطوائف عندنا المتقاتلة تارة بعضها ضد بعضها مسوقة بحقد فظيع، والمتناحرة طوراً في ما بينها مدفوعة بحقد أفظع، هي مؤهّلة لبناء لبنان الجديد «الخلنج»؟ مزحة كبيرة ربما! لا تقل:

كيف؟ بل قل: وفّقها الله ورعاها.

ولعلّي أفعل خيراً بأن أختم مقالي هذا مع القارىء بنبـرة متفـائلـة تجعل بعض أسنانه تبدو عند افترار ثغره، وهي أسنان قد تحتاج في الغالب إلى مداواة وإصلاح وحشو وتركيب جسور، ولكن كيف السبيل إلى شفائها وأطبّاء الأسنان في بلدنا المنكود قد فتحـوا إلـى جـانـب معدّاتهم مكتباً للمحاسبة تخرج منه الفواتير بالآلاف المؤلفة؟! أهُمْ أطبّاء، أم معتَمَدو قبض، أم منتسبون إلى شركة المقاولين المتّحديـن، أم أعضاء في نادي الحِلاب والصرّ؟ على أي حال فأمرنا معهم في غير هذه الفُسحة. في الختام نذكر، إيفاء منا للنبرة الضاحكة، أن الفنان الفقيد ميشال المير كان «يكرج» في كلامه بالفرنسية نظراً إلى تعليمه ونشأته، أما العربية فكانت ميسورة لديه في الكلام الدارج، حتى إذا ما دار الحديث حول الأفكار، وكان ميشال مضطراً إلى التعبير عنها في العربية، فهو عندها يعمد إلى ترجمة آرائه من صيغتها الفرنسية كما تدور في خَلَده إلى ما يتيسر له من تعابير عربية. وذات مرة أراد ترجمة (point de vue)، فأسعفته قريحته بالتعبير التالي: بخش نظر! رحم الله «ملمير».

(١٩٨٥)

الدعشوقة

طالعتني في الحي فلم أعرفها إلا بعد لأيٍ، فعهدي بها ذات شعر منسدل ناعم أسودَ حريريّ، من غير أن ألمسه طبعاً، وإنما هو النظر الشَّرِه قد يقوم مقام اليد! ولهذا اعتبر بعض الفقهاء النظر من الكبائر، وجاء في الحديث: «فالعين زناها النظر»، قصد النظر المحرّم الذي يوغل. وقال النبي لعليّ وقد سأله عن النظر: «إنّ لك الأولى وليست لك الأخرى»، وذلك أن النظرة الأولى لا جُناح على الإنسان فيها لأنها عفويّة، في حين أن النظرة الأخرى فيها ما فيها!

المهم أن الدّغشُوقة التي رأيتها ـ وعُذراً لهذا التعبير، وهو يعني المرأة القصيرة، فقد تسلل إلى النص بغير إرادة منا. ففي الكتابة ننتقي الأفكار، لكننا لسنا دوماً على بيّنة من الأثواب التي سوف ترتديها. لنعد إلى أمر الدُّعشوقة فإنها، بخلاف ما كنت أعرفها وأعهد من شعرها الأسود، قد أسبح بقدرة الأصباغ الحديثة ذا لون جديد. أدام الله للنساء «إيميديا» و«ولاّ» و«كولّستون» وغيرها من الماركات، فهي تغطي كثيراً من العيوب، وتخرج المرأة من تحتها مخلوقة أخرى لها شعر نبيذيّ أو أبيض أو مخضرّ أو ما شاءت من الألوان. وقد تكون العملية ذات إشعاع جماليّ، وقد تكون مجلبة للغرابة. إذ إن الشّعر المعنيّ لجميلة الحي غدا أبيض على رمادي، بحيث إني لم أتعرف عليها للوهلة الأولى أو النظرة الأولى! وصار شعرها الأملس على شكل لفائف ودوائر متـداخلـة، مما ذكّـرني بتعبير قرأته عند الكاتب المصري الفَكِه «محمد عفيفي»، من أن امرأة كانت تحمل فوق رأسها شعراً هو أشبه بطبق الكنافة أو السباجيتّي!

فكل ما زاد نَقَصَ وَفْقَ التعبير الشائع. وفي أيام الطلب بالجامعة كان لنا زميلة تأتي إلى الحَرَم ـ أي حرم الجامعة طبعاً ـ وهي متبرّجة، فكأنها

تغدو على « دانسنغ ». حتى الأخلاق، وهي مطلب كل إنسان فاضل، إذا ما زادت عن حدّها المستساغ تبدو مصطنعة. وفي الجامعة إياها كان لنا أستاذ ناجح علميا. وكان بالإضافة إلى ذلك مفرط التهذيب، بحيث إذا سلّمت عليه ينحني ظهره فتخشى عندها عليه! وهذا الأستاذ استهوته السياسة، وقد قمت بزيارته خلال أحداث ١٩٥٨، هذه الأحداث التي يسمّيها سمكري بمحلّة المصيطبه « خناقه ». وأثناء تجوالي في مكتبته العامرة بين رفوف المجلدات وقع نظري على مسدّس بين الكتب والمراجع الجمّة، فقال لي أستاذي عندها: هذا هو المرجع الملائم هذه الأيام! وغدا هذا الأستاذ بعدها شخصية مرموقة، وما زال تحت دائرة الأضواء، ولا أدري إذا ما كان يفكر حالياً بترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة القادمة.

فالمبالغة تبدو « آفة » في كل مجالات الحياة، شَعْراً أم خُلُقاً أم زينة أم سلوكاً. وشقيقي « أبو كريم » كان في صغره يروي الحادثة فإذا بها تشتمل على مائتين من المهاجمين! فأعضّ على شفتي السفلى، فيقول إنه يقصد مائة وخمسين. فأبتسم له بخبث، فيلوّح بيده ويقول إنه لم يعدّهم فرداً فرداً ولكنهم يبلغون المائة طبعاً. وما يزال العدد يتناقص إلى أن يقترب من حدوده المعقولة. وهو لم يكن يفعل ذلك، في صغره بالطبع، تهويلا أو جَلْطاً، فهو والحمد لله مجبول على الطيبة والشهامة ونظافة الكف والوفاء. ولعل طباعه وأرثوذكسيته الصارمة واستقامة رأيه هي التي جعلت منه مهاجراً مستقراً في قارّة غير قارتنا، فأبعدته لزمن مضى عن الوطن الحبيب حيث الأرثوذكسية ليست هي المذهب السائد!

فهذه المبالغة المتقدمة مصدرها البراءة، ولكن المبالغة المنبعثة عن التفكير تقودنا إلى فن عظيم في عصرنا هو الكاريكاتور. وابن الرومي، الهجّاء الموسوس، له في هذا الميدان باع موفّق. ونحن ما نزال نذكر اللحية الطويلة التي يهجو صاحبها قائلاً له:

ألقها عنك، يا طويلةُ، أو لا — فاحتبسها شرارةً في السَّعيرِ
أو فقصِّرْ منها، فحسبُكَ منها — نصفُ شِبْرٍ علامةَ التذكيرِ.

(١٩٨٢)

أين إيزيس؟

التقيته فوق الرصيف عند بائع الحقائب، ولم يكن هناك مفرّ من أن يسلّم أحدنا على الآخر، وخالجني أنه كان محرّجاً، ولكني أخرجته من إحراجه سريعاً بأن حيّيته مهللاً ثم مضيت للتوّ في سبيلي من غير أن أطرح عليه ماذا يفعل ههنا وماذا ينتوي أن يعمل. أنت إنْ قابلت صديقاً عند « العنتبلي » فلن يشرد ذهنك بالطبع إلى أنه ورد المكان لابتياع الأدوات الكهربائية، كما أنك إنْ صادفت أحد معارفك لدى « دبّوس » ـ وهذا اسم عائلة بيروتية تعاطت مهنة العِطارة في سوق أبي النصر، ثم أضحى اسمها دالاً على المهنة نفسها، وكل يدّعي وصلاً بدبّوس وأنه دبّوس الأصلي! ـ فلن تفكر البتة أنه جاء شارياً ألبسته الداخلية. وهكذا فبائع الحقائب يأتيه من رام سفراً وليس لغرض آخر. ويكون السفر للسياحة والمتعة، أو لتصريف الأعمال، أو أخيراً للهجرة ومبارحة الأوطان. وبما أن صاحبي ليس « بزنس مان » ولم يقرب التجارة في حياته، وبما أن السياحة أضحت لمواطنينا مع الارتفاع الجنوني للأسعار ترفاً لا يُقْدم عليه سوى الميسورين جداً وصاحبي ليس من طينتهم، بقي الاحتمال الأخير وهو أنه يعتزم هجرة.

رحم الله الأيام الخوالي ومواسم الصيف البهيجة عندما كانت أسراب المعلمين وخصوصاً المعلمات والصبايا يمارسون السياحة في رحلات منظّمة. وبين رفّ النساء تشاهد الأرملة التي تسيح لتتذكر المرحوم، وتقع عينك على العانس المتصابية، وبينهما تطالعك الفتاة المقبلة على الحياة ضحكة طليقة وخصراً مغناجاً. وترى أيضاً الشابّة التي تحصّنت بالعِفّة، ولكن العفّة خذلتها ففاتها أو كاد قطار الزواج ـ من أين جاءت هذه

الاستعارة؟ - فهي متلهفة لأن تلعق من الدنيا شيئاً من المتعة والفرحة ما دام أنه لا قطار ركّاب يصفر، أخفقت في ظنونها وأتى عوضاً عنه قطار بضائع متثاقل «الكرجة» تَعِباً. وغالباً ما كان الشبّان في هذه الرحلات قلّة محاطة بالعيون المتفحّصة، ولهذا كانوا يمارسون صيداً من داخل القُنّ! حلاوات فاتت، والمحظوظ هو الذي أدرك بعضها، إذ السياحة أصبحت اليوم لأهلنا متعة شبه ممنوعة أكلها غول الغلاء فغدت معه السياحة من نوع العنقاء والـخِلّ الوفي. أحد أصدقائي قال لي مقهقهاً: «زمطنا» والله بهذه الرحلات التي قمنا بها إلى هنا وهناك خلال السنوات الماضية فكان من نصيبنا أن شاهدنا بعض البلدان. لم يبقَ للناس في بيروت الكئيبة سوى البصبصة بعضهم على بعض عَبْرَ الشرفات، والدنيا حر، واللباس للنساء بلوزة مزركشة من غير أكمام من فوق، وللرجال بنطلون كاكي من غير أكمام من تحت. وشكراً للراقص الكروي «دييغو مارادونا» وبقية سَحَرة الطابة فقد أنسَوْا المواطنين بعض همومهم المزمنة. تصوّر حتى أم نفيسة وأم متري أضحتا خبيرتين في اللعبة، وأخذتا تتبادلان عبر الشرفات الخلفية مع تحية الصباح الانطباعات حول ماتش البارحة. ومن رأي أم نفيسة أن اللعب كان «مهضوماً»، وتأخذها الحماسة في الكلام فتسقط في الهواء من بين يديها قطعة من غسيلها الذي تضعه على الحبال. في حين تعتقد أم متري أن الـحَكَم، يقصف عمره، كان منحازاً وجلفاً، ولو أنها كانت مكانه لاختلفت النتيجة.

أنسانا حديثنا عن السياحة الآفلة والكرة الصاعدة ما كنا فيه من أمر صاحبنا الذي يتهيأ في ما يبدو للرحيل عن موطن الأرز المريض، ألم يأتكم خبر الغابة في الشمال التي تدهمها الحشرات القاتلة؟ وفي بلاد الناس يحرص الحاكمون على إغداق مواطنيهم بالمكتسبات ويشجعونهم على زيادة النسل، مقدّمين لهم الامتيازات الاجتماعية، وبالتالي فلا هجرة ولا مهاجرين. حتى الطيور المائية في ليتوانيا السوڤياتية استنبط العلماء لها هناك نظام تدفئة في قاع البحيرة، بحيث لا تهاجر إلى سواحل البحر الأبيض

المتوسط مبارحة أعشاشَها، ولكي تظل خلال الشتاء في موطنها الأصلي! هنيئاً لطيور التم والبط وغيرها فقد حظيت بالاهتمام والمواطنية، ونحن هنا في لبنان نسعى ليلَ نهارَ ونتفنن في السعي منذ اثني عشر عاماً لترحيـل سكان بلدنا إلى الخارج ورميهم في حبائل المجهول والضَّياع. حتى العاصمة بيروت صارت بلا وجه ولا هوية ولا كرامة، لكأنها لم تكن ذات يوم غير بعيد لؤلؤة وتاريخاً ومجداً. ويقول لي ناقماً أحد أبنائها القدامى وقد تركها وأصهر إلى عائلة من «جديتا» وقرّ سعيداً هناك في البقاع المضيء: هذه مدينتي مذ أبصرت النور وأعرف منها كل عطفة كل حجر كل زاوية، وأجول فيها الآن فأنكر منها كل حائط كل رصيف كل إنسان. ولهذا أراني أهرب منها غير آسف، بيروت لم تعـد مـدينتي الغـاليـة التي عرفتها وتمرّغت طويلاً في حِضْنها.

وما يقوله صديقي عن بيروت منبعث عن مرارة تقطر وأسى يهمي، إذ أيّ عاصمة عربية عرفت ما عانته زهرة العواصم من عذاب وتقطيع أوصال وتخريب وتشويه؟ من الشائع توأمة المدن عبر العالم، ولا أدري إن كان حصل هذا لبيروت، أو هل هذا الأمر يصحّ بين العواصم أو بينها وبين المدن الكبرى؟ سلوا «السَّرْدوك» ينبئْكم. ولكن إذا فات عاصمتنا هذا الحال في الماضي فهل في حاضرها من يرضى بها توأمة ووِصالاً؟ إنها بقية عاصمة منهوبة منهوكـة، وأطلال مـدينـة ضربها إعصـار الجهـل، وزمرّدة غافية بين الأوحال والنفايات، وامرأة جميلة تناوب الجميع على اغتصابها تولول ولا من يسمع وتلطم ولا من يبصر وتعرض ثدييها على العابرين إذ لم تعد حرة ولا مالكة لأمرها! أين «إيزيس» تجمع حطام «بيروت» كما لملمت ذات مرة في الوادي المقدّس أشلاء «أوزيريس» المبعثرة؟ بالله عليكم دلّوني أين؟

(١٩٨٦)

عيدك أيها القديس

ركب أحد المثقفين البحر، وعلى ظهر الزورق سأل النُوتيّ عن معارفه في الفلك، فأجاب بالنفي. فقال له المثقف: خسرت ربع عمرك. ثم سأله عن معارفه في الجغرافيا، فأجاب سلباً. فقال له متعالماً: خسرت الربع الآخر. وهاج البحر وماج وهدد الزورق بالغرق، فسأل الملاّح عندها المثقفَ: هل تعرف السباحة؟ فأجاب: لا. فقال له شامتاً: خسرت كل عمرك!

وأخونا «المعلّم» الذي نحتفل هذا الشهر دائماً بعيده ـ كِدت أقول في زلّة لسان بذكراه ـ هو هذا المثقف الذي يدرك المعارف في الفلك والجغرافيا وفي ما شئت من موادّ علمية وأدبية يتناوب السنوات على تلقينها لطلابه، ثم لا يدري بعدها ما يظل منها مترسّباً في قعر عقولهم. على أنه للسباحة في بحر الحياة والمال والمصالح والمكاسب جهول، قد ضيّع العمر كله بين أسماء الوصل والنفي والإشارة إذا كان للعربية متعاطياً، وبين الأحماض والأباريق والأنابيق إذا كان للكيمياء مدرّساً، وبين المدّ والجزر والخسوف والكسوف إذا كانت الجغرافيا مهوى فؤاده وسوق عيشه، وبين المعارك والقنا والمدافع والفتوح يصول ويجول بسيف استعاره من خالد بن الوليد أو من جعبة «كوتوزوف» أو خصر «نِلْسون»!

هو المعلّم يقيس ويحسُب ويخطط ويهندس، ثم يحملق في وجوه طلابه يـريـد، إذا كـان عصبيّ المزاج، أن يفترس من لم يفهم منه! فهو قد شرح وأفاض، ومن لم يستوعب ما قاله فلعلّةٍ كامنة فيه، أو لعلّه مستخفّ بجهد الأستاذ مسترسل في شيء من اللهو، أو ربما أن ادّعاءه عدمَ الفهم ليس سوى وسيلة ليوغر صدر هذا القِدّيس حَنَقاً وغيظاً! إن عمليـة

التعليم لا يدرك جلالها غيرُ الذي يمارسها و « يستشهد » كل يوم لدى إنجازها فعل خلق وإبداع وحثّ واكتشاف. إن الأستاذ الناجح في عطائه إنما التعليم عنده مخاض وإرهاق. لهذا لا أعجب من أحد الزملاء المحلّقين في ميدان المهنة عندما يتشكّى أمامي ساخراً: هذا العضو في جسمي يكاد يسقط، وذاك الآخر يكاد يتعفّن. ثم يستطرد متحدّثاً: يذهب الناس إلى بيوتهم ليتخففوا من عبء العمل ويعقدوا حلقات السمَر، أما أنا فأغدو إليه لأنام! نوم الهنا يا صاحبي، أفاض الله عليك جمالاً وكان لك عوناً.

ماذا تراني قائلاً في المعلّم، فمن أدركته حرفة التعليم إنما يقامر بجملته العصبية أن تصاب بقليل أو كثير من التوتر والاضطراب، فتمسي جملة ركيكة قلقة. فالطالب. صغيراً كان أم كبيراً، هو ممتحن للمعلّم الوافد عليه، قبل أن يُقدم المعلّم على تبيّن الخير والشر منه علمياً وخُلُقياً. وفي هذه العملية من التجاذب بين الطرفين تتكشّف شخصية هذا الذي أفاضوا عليه الألقاب تعويضاً وتكريماً وجبراً لخاطره. وكان الشاعر إبراهيم طوقان أدرى بالحال، فردّ على أمير الشعراء شوقي، عندما رفع هذا « المُعَتّرَ » إلى مرتبة الرسوليّة، قائلاً:

أقعد، فديتك، هل يكون مبجّلاً ... من كان للنشء الصغير خليلا
ويكاد يفلقني الأمير بقوله ... « كاد المعلم أن يكون رسولا »!

في هذا البلد المصاب بعاهات كثيرة شكراً لهذا الفدائي حقيقة لا مجازاً، فإنّ مَنْ لم يسوّس ضميره ولم يُصَب بآفات الحرب والحال الراهنة يندفق ما يعطيه من قلبه وأعصابه، لأن ميدان التربية يكاد أن يكون، حتى تاريخه، الواحة الظليلة في ركام من خرائب تعمّ هذا الوطن الطعين المدمّى المتفجّر. فارفع رأسك يا أخي المعلّم، إن التجارات على أنواعها لم تلوّث رداءك بعد. ولو تصوّرنا أن التعليم توقفت عجلته نهائياً، في هذا البلد المسكين، لكان معنى ذلك أن أجيالاً من الذئاب وقطعاناً من أبناء آوى تسرح في الطرقات. فالتعليم، على رداءة الظروفْ التي نحياها، هو الترياق لهذه الأجسام الغضّة التي تتلمس شمساً لأيامها الرطبة. فبوركت

يا مانح الأمل وقد عزّ، وناثر العِطر في أرواح تسري باحثة عن طريقها.
لن أطيل وقد قال الشاعر: أحلى التحيّاتِ أخلاها من الكَلِمِ.
(١٩٨٢)

حيث التفت القلب

مررتُ في « الطريق الجديدة » والتفت القلب من غير استئذان ولا وعيٍ إلى حيث كانت قائمةً ثانويةُ ذلك الحيّ الشعبي العامر وغدت الآن للحزن والكآبة والفراغ ساحة متربة مديدة مهمَلَة مستطيلة. فمنذ عام ١٩٤٩ تمّ افتتاح هذه الثانوية، وكانت المناسبة غرّاء بهيجة بحيث كان من حُضّارها رئيس البلاد ورئيس الحكومة. وفي صيف عام ١٩٨٢ المشؤوم وحصار بيروت ضرب الطيران الإسرائيلي صَرْح أول ثانوية رسمية للبنين عرفها لبنان المستقـل، فتهاوت رُكاماً وامّحت من الوجود وكأنها لم تكن خلال ثلاثة وثلاثين عاماً مدرسياً منبراً زاهياً للتعليم الراقي.

الإسرائيليون الأعداء، الأعداء حتى المات، ضربوا مواقع الإنتاج في بلدنا لغاية لا تخفى، فكيف يوفّرون زهرة المدارس وهي موقع للإنتاج الأخطر، إذ ظلت خلال عمرها الريادي خليّة ناشطة لأجل عمل يُقْدم عليه الإنسان وهو أن يَرِدَ مناهل العلم ولأجلَ مهنة يمارسها وهي أن يفتح أذهان التلاميذ الرياحين على حقائق الوجود والحياة. فأنتَ حين تعلّم تأخذ بيد التلاميذ ذوي العيدان الطريّة والعقول المشرعة لاكتشاف المعرفة واختراق المجهول والتطلع إلى الدنيا الواسعـة. والعـدو التـاريخي لشعبنـا وأمتنا يبغي ويعمل لأن نظل أسرى أقبية الجهل والعَتَمات، فالنور يُنيرنا ويفضحه، والعلم يسلّحنا وفيه مَقْتَله. والمدرسة معقِل وحديقة ونافذة على المستقبل، فكيف يرضى بأن تبقى أول ثانوية في التعليم الرسمي اللبناني شامخة مختالة بمن خرّجت، مزهوّة بمن تُعدّهم وتُطلّ معهم على مخططات الأمل وشُرُفات الغد؟

ويئنّ في صدريَ القلبُ الملهوف. أين الضوضاء التي كانت تنبعث من

الصفوف حيث التلاميذ يحتشدون بالمئات لينخرطوا في تلقّي المعرفة، أين غارت واختفت هذه الغُرَف التي كانت تحمل فوق أبوابها لوحات رُخاميّة تنبيء بأسماء الذين لبّوا دعوة جمعية البرّ والإحسان وتبرّعوا ببناء هذه الغرف من جيوبهم الخاصة وذلك ليتيحوا لأبناء الشعب المحرومين من نور الحرف أن يدلفوا إلى رِحاب معهد يمنح بسخاء وكفاءة علماً عصرياً مضيئاً؟ أين هي أصوات عشرات وعشرات الأساتذة، أصحاب الجدارة والامتياز، الذين توالَوْا على منابر هذه الثانوية؟ وكان مصدر فخر واعتزاز أن يقول أحدهم إنه مرّ على الطريق الجديدة وعلّم أو تعلّم، أعطى أو تلقّى، فلقد كانت في الماضي مقياس النجاح والتوفيق والتفوّق عَبْرَ الشهادات الرسمية. والأساتذة الذين عاصروها في عهدها الذهبي لمع الكثيرون منهم هنا وهناك في خدمة العِلم والوطن، أما تلاميذها بالآلاف فلقد انتشروا نجوماً موزّعة في عوالم الهندسة والطبابة والفن والتعليم الجامعي والثانوي والخدمة العسكرية والأمنيّة وفي مجالات الحياة كافة.

وكنتَ عند إطلالتك على مبنى الثانوية تطالعك في أعلى جبهتها الأمامية ساعة، لقد أراد الإسرائيليون إيقافها وتعطيل الزمن والذاكرة في هذه العاصمة العنيدة التي استعصت عليهم كما استعصت على الأنظمة البالية التي وقفت تشهد حصارها متفرجة، وكأن الأمر لا يعنيها، وذلك لأن انتصار بيروت يفضح دائماً بين الماء المالح على المحيط والماء المالح على الخليج أُسَراً مالكة وقبائل حاكمة ومستبدين وطغاة وسماسرة... ولا يداخلنا ريب أن الذين كانوا سُعاةً وراء تشييد البناء القديم للثانوية سيصلون ذات يوم إلى تشييد بناء جديد سيكون، أو ينبغي أن يكون، أرحب وأضوأ وأكفأ. ولكن ليس عبثاً أن الدول المتقدمة تحرص دائماً على الحفاظ على مؤسساتها القديمة ومراكزها التليدة.

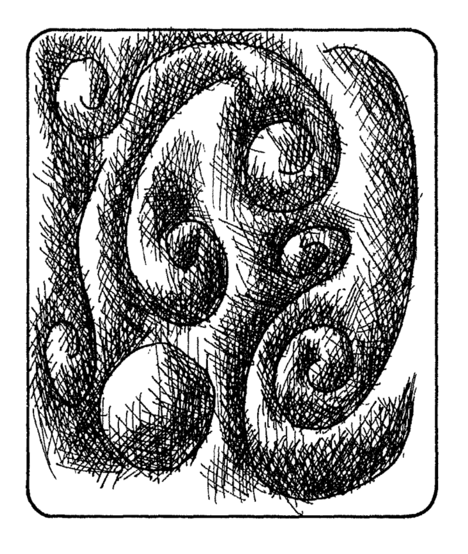
شاهدتُ ذات مرة في موسكو، خلال جادّة جميلة، ورشة من العاملين يسعَوْن بوسائلهم الفنية لجرّ بناء صغير إلى الخلف بحيث يكون على سويّة الجادّة المستحدثة! وهذا البناء ربما سكنه لزمن مضى هذا الشاعر من مفاخرهم أو ذاك الفنان أو المفكر، فغدا الحفاظ عليه حفاظاً على الذاكرة

والماضي. إذ مَنْ يدخل محراب التاريخ يصبح كل ما يتصل به جليلاً مقدّساً. حتى الأبنية القديمة والأسواق والساحات في مدينة تُسرع نحو الحداثة هي أمانة غالية، لأنها زوايا حميمة تقبع في جنباتها الذكريات والأشواق والتطلعات والتقاليد. فالصور واللوحات، مهما كانت نفيسة، لا تُغْني عن الأصل، فما يتصل بشريان القلب ليس ما يتصل بشبكيّة العين! وعندما أرى بناء قديماً جذّاباً يتهاوى في بلدنا لتحلّ مكانه كُتْلة صمّاء من الإسمنت المسلّح الأخرس أشعر أن شيئاً عزيزاً دافئاً دخل في تنشئة ذوقي وكياني وسيرتي يتهاوى في وَهْدة الغبار والنسيان، وأقول في نفسي وقد يتعالى صوتي من النقمة على بلد «داشر» فلتان تحكمه عصابات من التجّار والوسطاء: لتنكسر أيدي الذين هدموه. أما كان أجدى لنا لو وضعت الدولة يدها عليه، وهي في أمسّ الحاجة، فأحالته، بعد ترميمه والإضافة اليه، دائرة أو معهداً أو كلية، فتكون قد أفادت واستفادت وحفظت للمدينة وجهها الحقيقي الساقط يوماً بعد يوم في بؤرة التجارة الخسيسة والنظام الذي لا ضابط له ولا حارس.

أيتها الثانوية المسحوقة في الطريق الجديدة الصامدة، سيظل قلبي يحنّ إلى صفوفك الحافلة عَبْرَ طوابقك الثلاثة المرتفعة، وكلما عرّجتُ طريقي على شارعك المعهود فإذا نسيتُ أن أتطلّع فإن قلبيَ لن يفوته أبداً أن يئنّ ويلتفت. وستبقين وستعودين حيث كنتِ، وبيروت لن تصير أبداً للغزاة مدينة مفتوحة.

(١٩٨٤)

أسماء دافئة



أحمد حاطوم
لغوي يتسم بالرحابة

تسألني عن أحمد حاطوم لكأنك تلج الجانب الحميم في رواق نفسي، فما أحمد إلاّ شقيق الروح وعشير أيام الطلب في الجامعة عندما كنا ندفع الأيام لهواً ومُفَاكهة. ولسائلٍ أن يعجب كيف يلتقي العلم واللعب، وبالتالي من حقه أن يطرح التّسآل: وماذا كنتم تفعلون على مقاعد الدراسة الجامعية؟ حنانيك، يا سيدي المتعجّب، فلو أن الزمن رماك بما رمانا، ولا أقف الآن عند كوكبة صغيرة ضمّت أفراداً قلائل من الأساتذة ذوي الضمير والنزاهة، لأدركتَ عندها أننا كنا نحيا في رحاب جهلٍ أنسيكلوبيديَ عجيب! تصوّر على سبيل المثال والطُّرْفة أننا تخرّجنا في الجامعة نحمل إجازة في اللغة العربية وآدابها، وعلى هذا فمن يطالع برْواز شهادتنا الغرّاء سيحسب أننا خُضْنا في بحار العربية وكِدْنا نغرق لولا أن الله سلّم ورَئِفَ. وللحقيقة فنحن لم ندرس شيئاً من فِقْه اللغة العربية، وكيف يتأتى لنا ذلك وأستاذنا الموكل بالأمر كان قد حصّل في حياته فقط بعض لمامات من علم الكيمياء! تسألني بعد هذا ماذا كنتم تصنعون في الجامعة؟ كنا نلتفت إلى عملية التثقيف الذاتي ونحاول الكتابة ونشق طريقنا العلمي في الحياة، حتى إذا ما نجونا بأنفسنا من معهد المعلمين العالي درجنا في سلك التعليم وليس لنا من زاد سوى الحماسة المتّقدة والاستعداد الشخصي وهذا الشوق الدفين لممارسة فعل التعليم والاكتشاف مع تلامذتنا طلاّب الشهادات، ويومها لم يكن النجاح في البكالوريا إجبارياً كما انتهى الحال بهذه الشهادة الشهيدة!

ذهبتُ أنا إلى سلك التعليم الثانوي، وأحتفلُ هذا العام بمرور ربع قرن

على تعاطيّ هذا العمل وأحارُ في لون الطِّلاء الذي يغطي هذا اليوبيل! أما أحمد فمضى بعد الجامعة إلى دار المعلمين الابتدائية في بئر حسن، ثم ارتحل عنها عقب سنوات خمس إلى التفتيش التربوي، وما زال، بكل ما يجيش في صدره من صدق ووداد وصفاء وطنية، يزاول وظيفته والقلب منه حدوب ملتاع على مستقبل ناشئتنا. إنّ مَن قرأ كما قرأتُ معجباً مأخوذاً، إبّان الموسم الفولكلوريّ الأخير للشهادات الرسمية، الدراسة القيّمة التربوية الاجتماعية الفكرية التي نشرها الأستاذ حاطوم على حَلَقات في جريدة «النهار» حول ظاهرة الغشّ في الامتحانات، عرف عندها أن صديقنا ليس مفتشاً بالمعنى القهريّ الساذَج المألوف لهذا المصطلح، وإنما هو بحق رجل تربية ومسؤولية وثقافة. وأذكر، ما دام الحديث دار في صدد التخرّج في الجامعة، أن أحمد سليم حاطوم المولود في الشيّاح تقدّم في حزيران ١٩٥٩ لنيل شهادة الكفاءة برسالة كان قوامَها ترجمةُ ثلاث دراسات من الفرنسية إلى العربية: الأولى لنيكيتا آليسّياف وهي «الدراسات الإسلامية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية من خلال كتاب حديث» وضعه عهدذاك المستشرق ن. أ. سميرنوف. والثانية لهنري بيريس «الشعر العربي الأندلسي وعلاقاته المحتملة بشعر التروبادور»، أما الثالثة فتعود إلى محمد حميد الله «الإيلاف، أو العلاقات الاقتصادية - الدبلوماسية لمكة ما قبل الإسلام». وهذه الدراسات المنقولة إلى العربية ظلت بين أوراقه، وما أكثر الأعمال والمشاريع التي تنمو على القرطاس بين يدي أحمد، فهو رجل الأوراق المطويّة!

وهذه الأوراق، المنشورة منها على قلّتها والمطويّة على وَفْرتها، مسكونة بهمّ رئيسٍ ما بَرِح يأخذ أحمد من أقطاره جميعاً مذ انعقد الإلف بيننا وحلّت ما بين قلبينا وعقلينا صداقة مترعة بالوفاء مزدانة بالشَّغَف إلى اكتناه المعرفة. إن الطبق اليوميّ في لائحة المعرفة لدى أحمد حاطوم هو اللغة العربية، إنه لا يملّ من الإقبال على هذا الطبق والاضطراب بين يدي هذا اللون الواحد. ومن الناس من تضطر إلى سؤالهم عمّا يشغَلُهم في هذه الدنيا، لأن ما يأسِرهم لا يطفو على ملامح

كلامهم ومفاصل حديثهم. بيد أن ساحبنا يُغنيك عن البحث والتنقيب، فهو نهِمٌ إلى هذه اللغة الفاتنة حفيّ بنحوها، ولا يفوتك أن تلحظ أن هذا الاحتفاء يتسلل إلى مجرى كلامه، أيّاً كان الموضوع الذي يدلف اليه، وأن ذاك النهم يشيع في نسيج عباراته، حتى في موارد العبث والمزاح التي كنا نتقلب طيّها منتشين عهد الطلب في الجامعة، فإن أحمد كان دائماً يشدّ النكات إلى لُجّة لغوية ضاحكة!

ومنذ هذا الوقت الباكر صارت اللغة مهوى فؤاد أحمد وبوصلة تفكيره، فسعى إلى بلورة آرائه في هذا الميدان الذي نشكو فيه حالاً يكاد يكون مدقعا في بلدنا، بخلاف ما كان عليه أسلافنا الكبار من اللبنانيين الأعلام في خضمّ النهضة. وهكذا نشط أحمد حاطوم في التأليف المدرسي، كما دبّج عند تمرّسه بالتعليم الجامعي المحاضرات المشرقة. وفي هذا كله كان يجتهد ويتوجه، نظير ما فعل لغويّ قدير هو إبراهيم مصطفى في كتابه «إحياء النحو»، إلى اللغة تـواً في أصـولها القـائمـة على الطبيعيّـة والسّليقة قبل أن قعّد لها النُحاة العرب بمختلف مدارسهم، إذ في رأي اللغوي المصري المتقدم بنا ذكره أن النحويين، شأن الفلاسفة والمتكلمين المسلمين، فلسفوا النحو فحادوا به عن جادّة الصواب والجِبِلّة والتلقائيّة. ومن دأب أحمد، إذا سألتُهُ عن أمر لغويّ أشكل عليّ أو طرح في ذهني تساؤلات، أن يجيبني دوماً: ماذا تقول لك سليقتك، وكيف عالجت الأمر قبل أن تتمنطق؟ إذ المنطق داخَلَ متن العربية، أو متن اللسان كما يحلو لأحمد أن يعبّر، مع اجتهادات النُحـاة. وهـذه الاجتهـادات، في نظـر صديقنا، ليست نقطة الختام أو بمنزلة الأشياء التي لا يأتيها باطل، فهي قابلة للتعديل وحتى الرفض ما دامت في أصلها اجتهادات على المتن أو حواشيَ تراكمت مع الزمن، فنحن نستأنس بها من غير أن تغُلّ عقلنا عن التفكير النحويّ المعاصر، فإن اللغة ليست صنماً يُعبد بل هي واسطة ناجعة للتعبير الحضاري السليم. ومن هنا أُثـمّن لدى أحمد حاطوم انفتاحه اللغوي واستعداده للأخذ بكل ما ييسر بلا تعقيد أو ضيق أو قداسة مصطنعة. فاللغة كائن حي ينمو ويتطور ويواكب الجديد ويقفِز مع مغامـرات العلم،

وليس من طبع هذا الكائن المتحرك أن ينتظر طويلاً الإذن أو المرسوم أو الدخان الأبيض يطلُعُ من جلسات المنظّرين في الغرف المغلقة! وكم تعاف نفسي اللغويَ الذي إنْ حدّثك في اختصاصه وجرى معك في حَلْبة الجدل تخال أنه يمسك بعصا خفية يريد أن ينهال بها عليك أو يبثّ الهلع بواسطتها في أوصالك، وتحسب أن دفاعه المقيت عن العربية منبعث من شعوره الزائف بأنه القيّم عليها المتفرّد بحراستها. هو إلى أن يكون شرطياً أكثر مما هو لغويّ يعيش عصره وقضاياه، واللغة دائماً تطرح نفسها تعبيراً عن ازدهار العصر أو أزمته، فليست هي قضية منفردة قائمة بذاتها وإنما تتبدّى في علائقَ جدليّة لا تُحصى بالهموم الفكرية التي يُناط بها التعبير عنها. ورحابة أحمد متأتّية في أنه لم يقصُر ثقافته على اللغة وبالتالي عرف، بحسّه المرهف ومعرفته المكتَسَبة ومعاينته الدؤوب لَمجَرِيّات أمور دنيانا المعقّدة، أن اللغة تدبّ في شرايين الحياة كما يصعد الغذاء في عروق الورق والشجر.

(١٩٨٥)

محمد دكروب
هذا الجندي غير المجهول

كان يعدو على الشطّ صبيّاً يملأ الموج عينيه، والمدينة يتلفّت إليها قلبه، وهو بينهما دفقة براءة تتدحرج على الرمال حاملة عطر الياسمينة المتدلية في بيتهم ودهشة الصبيّ الطالع إلى الدنيا يرمي على كل حبة رمل سؤالاً ويرضع من نهد كل موجة حُلْماً شهيّاً. من شاطىء «صُوْر» بدأ محمد إبراهيم دكروب رحلة العمر عام ١٩٢٩، في النصف من شعبان حسبما تروي أمّه الحنون. وكان وهو الصبيّ الصغير يحرص، حتى في أيام الشتاء، على أن يخرج في غبش الفجر، قبل أن يحرّك الأذان الشجيّ قلوب البشر والشجر، وذلك ليلحق بالصلاة يؤديها جماعة وراء السيّد عبد الحسين شرف الدين. وكان في هذا الوقت الساجي يُطلّ أحياناً على الفرن بغية تأمين الخبز لدُكّان أبيه، ويعرّج على الدكّان عندها ليضيف ماء إلى قِدْر الفول وليحرّك من تحتها الجمر.

وفي المدرسة الجعفرية شرع محمد يفكّ الحرف، كما نقول، ويأنس به، وظل منذ ذلك اليوم البعيد للصحبة الباكرة بينه وبين الكلمة وفيّاً. ذلك أن أباه الفقير انتزعه، رغم محبته الكبيرة له، من مقاعد الدراسة الابتدائية ما قبل السرتفيكا بصفّين، ليلحقه به معاوناً في دكّانه الصغير. وهكذا امتهن دكروب أولى مهنه وصار، وهو في نحو العاشرة، فوّالاً. ولم يُجْدِ مع الأب الأميّ إقناع أو توسّل، كما لم تُفلح دموع الصبيّ الشاطر في المدرسة في رد الأب عمّا اعتزم. لحاجته أولاً إلى ابنه في الدكّان، ولأنه لم يكن يجد نفعاً في الدراسة نفسها، فأبو خليل، على أميّته، يروي الشعر وله باع في النوادر بحيث كان مرغوباً فيه، وكان السيد شرف الدين يستدعيه

إلى مجالسه على شرط أن لا يكون سكران! ونشأ محمد على صورة أبيه في بعض مظاهر مزاجه. وأخصّها هذه الابتسامة التي لا تفارقه والتي تتسع فتغدو قهقهة جَذْلى.

وتقلّب محمد في المهن: فتارة هو سقّاء في مشتل زراعي يسعف الفَعَلَة بالماء، وطوراً يبيع الخبز في السوق تصنعه أمّه الكادحة أبداً، أو يدور بصينيّة ملأى بالفلافل مع الخبز والملح. وتارة أخرى كان يُكبّ في الصباح على سنع شناغيب من جريد النخل بضم فيها الياسمين الهاطل في عُقْر بيتهم، ويغدو بعد الظهر ليبيعه فيبدو عند تفتيحه كالمروحة. وهو ينادي ويصرخ على بضاعته: ياسمين، ياسمين، فلا يُقبل على شرائه بخاصة سوى الفقراء والبحّارة الذين تعمر بهم مقاهي «صور» عند شطّ البحر حيث يلعبون، ثم يمسكون بهذا الياسمين الفينة بعد الأخرى ويشمّونه بشراهة لكأنهم يودّون أكله!

سوق الحياة جبلت عود الفتى محمد وأرهقته. فهو إبّان الحرب كان يبيع الخبز والزيتون للجنود القبارصة، ويغشى الخمّارات حيث يعرض على روّادها ترمسه الذي كان ينادي عليه: أحلى من اللوز. واضطرته ظروف الحياة، وهو في نحو الخامسة عشرة من العمر، إلى أن يشتغل عامل بناء يملأ قُفّته بالحجارة والرمل ثم يحملها على رأسه ناهضاً بها إلى العمال يبنون. ويخبرني الصديق دكروب قائلاً: «ذات يوم من شدة التعب الجسدي صرت أبكي»! وانتهت سلسلة المهن «الحرّة» بصاحبنا إلى أن يصير سمكرياً في دكان أخيه فأتقن الصنعة، وقوامها يومذاك التعامل بالتنك يغدو بين يديه أباريق ومزاريب ونوّاسات، وبوابير يُصلحها وقدّاحات.

وفي هذا الدكّان كان يفد إليه بعض أصدقائه من طلاب المدرسة الجعفرية، وفي مقعد منه كان يجلس محمد ويقطع وقته العاطل يملأه بالقراءات التي أدمنها، خصوصاً بعد مبارحة المدرسة. وكان أخوه يتشاءم من هذه القراءة في الدكّان إذ هي، على حد نظره، تقطع الرِّزق! وأصبحت المطالعة شغله الشاغل يقرأ أيّ كتاب يقع بين يديه، وبشكل خاص

« روايات الجيب »، هذه السلسلة المشهورة في ذاك العهد وكانت تصلنا من عاصمة الثقافة العربية القاهرة. وهذا النهم دفعه إلى قراءة كاملة لبعض آثار عبد الرحمن بدوي، من غير أن يفهم منها شيئاً. ولم يبقَ في ذهنه من أرسطو ونيتشه وغيرهما إلا قصص حياة هؤلاء المفكرين. المهم كان أن يقرأ وأن يكون على سباق مع الزمن لالتهام الصفحات. وأنت إذا شاهدت في شوارع بيروت منذ ثلاثين سنة إلى اليوم شخصاً يتأبط كتاباً ويُمسك في يده اليمنى مجلة يطالعها وهو يمشي متكأكئاً على نفسه، فغالباً ما يكون هذا الشخص محمد دكروب!

ومن دكّان السمكرية أخذ محمد يُطلّ على عالم الكتابة. بدأها في مجلة « المعهد » التي صدرت قُرابة عام عن المدرسة الجعفرية، وفي مجلة « العرفان » العتيدة الغنية عن التعريف في التاريخ الجنوبي، وفي جريدة « التلغراف » التي كان يشرف عهدها على القسم الثقافي منها الذي يصدر كل اثنين الأديب اللامع رئيف خوري. واهتم رئيف الحدوب بدكروب الناشىء، ونشر له ذات مرة قصة حرص على أن يضع لها رئيف عنواناً لافتاً جذّاباً من الناحية الصحافية وهو: أديب وسمكري! وفي دكّان هذا الأديب السمكري في « صور » العتيقة وفد رجل حيي الجسم والطبع، وكان قد ترك العراق عام ١٩٤٩ مكرهاً، ليتعرف على صاحبنا، وكان كلّ منهما قد سمع بالآخر بالواسطة، قائلاً له في لهجة بريئة: مرحبا محمد، أنا حسين مروّه.

هذه الحياة « القصصية » عكس جزءاً منها محمد في « الثقافة الوطنية »، المجلة « الشهيدة » التي قامت على أكتاف دكروب من الناحية التحريرية وفي ورشتها تعلّم « كار » الصحافة الثقافية. وإذ أنعتها بالشهادة لأنها صدرت أسبوعية عبر ٥٧ عدداً لمدة عام وبعض عام (صدر العدد الأول بتاريخ ١٩ كانون الأول ١٩٥٢، والعدد الأخير في ١١ شباط ١٩٥٤)، وصارت شهرية خلال الأعوام ٥٤ ـ ١٩٥٩، وقد انتهت مجلة ثقافية راقية في محتواها وتحريرها، ثم اختفت فجأة من عالم الأدب والفكر بلا مبرر! لعل نجاحها نغّص حياة بعض زعماء التقدّم المتسلّط حينذاك على

الأقلام والعباد! وها قد وصلتُ الآن إلى الدافع الذي حملني على الكتابة عن محمد دكروب - وهل من الضروري البحث عن دافع للحديث عن صديق قديم؟ إذ في هذا الشهر تكون مجلة «الطريق» قد أتمّت أربعين عاماً على نشأتها، وهذا يوضح أن للثقافة التقدمية والثورية في بلدنا جذوراً ضاربة في تربة هذا الوطن. ووراء هذه الصحافة الواعدة بالشموس جنود أمضَوْا سنوات عمرهم يسقونها بالكد ويرعون استمراريتها خيطَ نور وهَدْيٍ.

ومحمد دكروب هو أحد هؤلاء الجنود البررة بشعبهم والمستقبل. فمنذ جاء بيروت عام ١٩٥٠ حتى يومنا هذا، باستثناء سنوات من الغربة القاحلة أمضاها في الخارج، بقي دكروب وراء متراس الحرف يحرر ويكتب. وفي الزمن الماضي كان كاتب بمفرده يهيّىء أبواب المجلة على مختلف أنواعها تقريباً، ويحبّر افتتاحيتها، وينسّق مقالاتها بعد قراءتها والنظر فيها، ويقوم بالعمل الأسود أي تصحيح البروڤات، بحيث يمكن القول إن ظهور عدد جديد يكمن وراءه جهد صامت غزير. وكان دكروب خلال حياته ولوقت طويل هذا الكادح الدؤوب، ينهض بعمل تحريريّ ينجزه الآن عادة مجموعة من المحررين ثم لا يبلغون بعدها مستوى أفضل! وعلى صفحات «الصرخة» و«الطريق» و«الثقافة الوطنية» و«الأخبار» زرع دكروب اسمه في كتابات إبداعية وتحريرية جمّة. وبلغ به الأمر أنه كان يكتب لمدة من الزمن عموداً في الصفحة الأولى من جريدة «النداء» عنوانه «لا هوادة» ويتناول فيه أحوال السياسة وشجونها. سامحه الله وعفا عنه، فلكل حصان كبوة ولكل إنسان هفوة!

ومحمد دكروب دخل الحياة الكتابية قاصّاً، وأصدر عام ١٩٥٤ مجموعته «الشارع الطويل» عن دار القلم. وكتب بعدها نحو ثماني قصص، ثم هجر القصة من غير عودة إليها. وإذا ما سألته تعليلاً لهذا الهجران قال لك: «قصصي لا ترضيني الآن. عُدّتي الفنية ليست كافية. أنا مؤمن أنه مهما تثقّف أحدنا لا يصير كاتباً إلا بممارسة الكتابة. ربما لو استمريت لوصلت الى نوع من الإتقان يرضيني». إن ذكريات الكاتب خلال

طفولته ونشأته الأولى تمدّه بمدد غريب، وتكاد نصف أعمال غوركي مثلاً تكون مستوحاة من ذكرياته. والأديب في كل ما يخطّ ينساب جزء من نفسه وهمومه ومشاغله إلى سطوره، مضمرة كانت هذه الشواغل أو عائمة على الورق. ودكروب لم يستغلّ كما يؤمل المادة القصصية الحلوة التي تنطوي عليها حياته الأولى بالذات في مسقط رأسه، فهي غنية بالمادة الأدبية وحافلة بالمفارقات والأحداث. عساه فاعلاً وممارساً.

على أن المنزع القصصي ظل عالقاً به، وقد استعان به في كتابه الرائد المبتكر «جذور السنديانة الحمراء» (دار الفارابي ١٩٧٤). على أننا نختلف معه ههنا في شرعيّة هذا المنزع عندما يؤرّخ لنشوء حزب. فإمّا أن يكون العمل كله «روائياً»، وهذه مهمة صعبة إنْ لم تكن متعذّرة لأسباب مختلفة، لعل أبرزها أن العمل الروائي يحتاج إلى وفرة من الوثائق والمخطوطات والمذكرات، في حين أن دكروب يُمسك شمعة ويتلمس طريقه وسط شحّ في المعلومات. وإمّا أن يأخذ العمل منحى الأسلوب العلمي والبحث عن الحقائق، وهو ربما ما نحتاجه ههنا دون غيره. وقد عوّل عليه دكروب بشكل عام في كتابه، وإن ظلت بُقَعٌ من الحنين القصصي والرغبة في «الحكاية» تراوده هنا وهناك.

وفي العام الماضي أصدر دكروب كتابه الأنيق «الأدب الجديد والثورة». وتحتوي مقدّمته الرصينة انفتاحاً فكرياً وتطلّعات مستقبليّة، في حين أن المقالات والدراسات النقدية المدرجة فيه هي حصيلة لبعض ما نشر قبل سنوات.

يا أبا «لينا» (وعلى القارىء أن ينطق الاسم في لفظه الروسي) تحيّة الوداد، ولأنت تنشر منه الأريج، ونحن على ترقّب لمطالعة مواليدك الآتيات.

(١٩٨٢)

ميخائيل مسعود
أديب من «حقل العزيمة»

ليست الأيام طَوْع إرادتنا نشير عليها فتنقاد ونأمرها فتذعن صاغرة. ولو أنها كذلك لانحلّت أمور كثيرة في مجرى حياتنا، ولكن أليس خضوع الأيام لما نحبّ ونهوى مطيّة أيضاً للغرور والبَطَر ومركباً لما هو أدهى؟ المهم أني وقعت منذ أشهر مديدة على كتاب «أمثال وحكايات» لميخائيل مسعود (دار الكتاب اللبناني ١٩٨٠)، وما أن طالعته حتى انعقدت صداقة بيني وبين هذا الأثر، برغم أني أجهل مؤلفه ولم يسبق لي أن قرأت له شيئاً. على أني عندما وقعت عيني على صفحة في آخر الكتاب تحوي قائمة بمؤلفات هذا الأديب اللبناني أحسست بالذنب واللوم.

الذنب لجهلي بأديب من أبناء بلدي يُخرج للناس كتابه السابع في سنوات معدودات، فكيف تفوتني معرفته، وهل أنا معذور في هذا التقصير حيال زميل تجمعني به أنبل مهنة وأجلّ هواية؟ وانتابني اللوم أنهال به على صحافة ثقافية ما زالت تسيّرها الصدفة فلا تستشعر واجبها تجاه كل ما تخرجه المطبعة في لبنان من ثمرات ينبغي أن تكون بها حفيّة ومعرّفة.

وقارىء هذه الكلمة سوف يقول: ما دام أن الصحافة مقصّرة فلماذا نمتَ أشهراً فوق هذا الكتاب لميخائيل مسعود، من غير أن تخطّ حوله كلمة منصفة؟ ألم تسمع بالآية الكريمة: «أفتأمرون الناس بالمعروف وتنسَوْن أنفسكم»؟ بلى، ولكن الأيام والظروف لم تكن مِطواعاً لما تاقت اليه نفسي. وقد دبّجتُ ذات مرة مقدّمة نقدية لتناول هذا الكتاب، فإذا بها تتسع وتطول بحيث صارت مقالاً مستقلاً! وإن حقيبتي تشهد أنها ظلت حاملة هذا الكتاب تروح به وتجيء، وهي تدهَش من بقائه منقوعاً

في زاوية منها. في حين أن كتباً أخرى دخلت اليها ثم خرجت بعد أيام، وبعضها ما أن دخلت حتى أسرعت خارجة. ولكن هذا الكتاب استحلى المكوث وألفه مضطراً، بحيث أصبح عارفاً بما في الحقيبة من عادات. وهو يجاور كتبا ملساء أو ضخمة. بيضاء مونقة أو عجفاء عبوساً. مستطيلة أو سغيرة في حجم الكف أو الجيب، فلا يبدر منه أيّ عَجَب أو تَبَرّم، إذ في عائلة الكتب، كما في الناس، أشكال وألوان وأحجام وأهواء، فليس له أن يتذمّر لأن الموضوع عائليّ بحت. وهناك هذه اللفائف الأنيقة، الموضوعة كل صباح ضمن غلاف من النايلون، تنتفخ به الحقيبة قليلاً. ويحدث أن يكون هذا الغلاف مجاوراً لكتابنا ظهراً لظهر أو بطناً لبطن أو ظهراً لبطن، فيحتك الكتاب به بحكم الجوار ويدهش لهذه الأحرف المفردة التي تعلو هذه اللفائف ويحاول أن يفك رموزها بلا جدوى، فلا هو اشتغل بالآثار ولا سبق له أن أقدم على فك الهيروغليفية أو الحِمْيرية. ولم يَدُرْ بخَلَده أن الأمر أهون من ذلك بكثير، وأنه لا يتعدى الرمز بحرف «ل» إلى لِفافة الخبز العربي باللبنة، و «ج» تذهب إلى الجبنة، و «م» تعود إلى المرَبّى! قصارى الأمر أن صاحب هذه اللفائف يسري النظام والترتيب والدقة في دمه، وبالتالي يُقدم على هذه الرموز السهلة لئلا يبدأ طعامه بالمربّى خطأً وينتهي باللبنة، فهو ليس من أهل نابلس مثلاً الذين يشرعون في الطعام بتناول الفواكه!

ولكن الأمور تنحلّ بعد عُسر، وها أني مكبّ على كتاب ميخائيل مسعود أقلّب صفحاته بعد طول انقطاع أملته الظروف العصيبة. ولا يتعدى هدفي من تقليبها غير الإشارة إلى عمل جميل والاحتفال بكتاب ظريف، إذ إن موضوعه ينعقد حول الأمثال، وإنّ لي بها عناية، أتسقّطها من أفواه الناس، خصوصاً بعض الطاعنين في السن الذين تشكّل عندهم جِماع ثقافة شعبية ما أغناها وأطرفها. وهذه الهواية جعلتني أجمع الأمثال في بعض أوراقي، وإني لأراها تتراكم بين يديّ وتغتني، ولا أدري الآن في أيّ شكل سأقدمها للقارىء ذات يوم. وهذه الهواية الغَوّاية هي التي جعلتني ما أن يقع نظري على كتاب ميخائيل مسعود حتى أتلقفه مغتبطاً

بصيد ثمين ولقية مبهجة.

إن مقدّمة هذا الكتاب أوقعتني في حَيْرة، لأن صاحبها على ما يبدو لاقى إهمالاً وصدوداً من النُقّاد - وأين هم في الوطن العربي؟ ولا نتحدث عن الاستثناءات - فصار ناقماً حبلانَ، بحيث إنه لا يتورع عن القول: « فنقّاد اليوم - حفظك الله - ككتّاب العدول، يكتبون وصيّة من يدفع في الوجه الذي يريد »! وأنا - رعاك الله يا ميخائيل - لست أسعى مع كتابك مسعى الناقد، ولا أدّعي في هذه العُجالة أني أؤدي دور المكتشف، فقد سبقني إلى ذلك القراء الذين عرفوك ولا يخالجني ريب أنهم أحبّوك، وهؤلاء بالذات هم الغنى الروحي الحقيقي الذي يكتنزه أيّ كاتب. وإني لأُطمئن أديبنا، بغير طعن في أريحيّته وهو الريفيّ الأصيل، أني لم أخطّ هذه الكلمات التي أملاها الود والإعجاب والفرح على أمل أن الرُسُل ستتوالى على بيروت حاملة سِلال البيض والتين والزبيب من « حقل العزيمة » - وهي قرية المؤلف الواقعة في الشمال على طريق سير الضنّية. فالدفع من أيّ نوع ليس وارداً، شأن شيمة هذه الجريدة مع مدبّج هذه الزاوية، وإنما هو كلام أتبرّع به لوجه الحق ونُصْرةً للقيَم والجمال.

ولكن يبدو أن حظ ميخائيل مسعود عاثر معي كما هو حاله مع النقّاد، إذ ما كدت أخطّ السطور المتقدمة، والتي تحدثت فيها عن حالي أكثر مما أخذت في الكلام عليه، حتى تفجّرت الأحداث الأهلية مجدداً في بلدنا، فطويت أوراقي وغادرت المؤسسة التعليمية التي أعمل فيها على عجل، تاركاً كتاب « مسعود » في أحد أدراج مكتبي على أمل العودة اليه بعد أيام. غير أن الأيام صارت شهوراً، والمؤسسة التي أعرفها ترددت اليها فكدت أُنكرها لما حلّ بها من عَبَث! ويبدو أن المسلحين الذين نزلوا معهدنا العلمي، وهم من نوعية « ثوّار آخر زمان »، قد راقهم في ما راق كتاب « أمثال وحكايات » فتبعثر بين أيديهم وتبدد. ولقد عثرت على غلافه في صف البكالوريا، عفواً فقد غدا هذا الصف، كما أصبح مكتوباً على الباب، « غرفة خاصة للضُبّاط. ويُمنع دخول هذه الغرفة تحت طائلة المسؤولية »! ويلي ذلك إمضاء المسؤول وهو « أبو الليل ». أبو الليل، أبو

مشطاح، تيتو، روءمل، وكل رجالات التاريخ غطّوا جدران معهدنا بأسمائهم. قيل إن التاريخ لا يتكرر، وإذا ما فعل فهو في المرة الأولى مأساة وفي الثانية ملهاة. أجل، وأيّ ملهاة و «مَسْخَرَة»! ويا مجمع الطوائف والقبائل متى تصير وطناً حقيقياً لا فولكلوراً تهريجياً يقضي على الآمال والأعمار؟

(١٩٨٤)

نقولا قربان
صانع الجمال الشعبي

منذ حين من الزمن وأنا أسائل نفسي عن أديب لبنانيّ تقرأه فتخال كأنه اعتزم أن يكون في حياته سائغاً بارعاً ذوّاقة يقلّب بين أصابعه الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة ثم تستحيل بفطنته حلى ساحرة تغفو على نهود النساء فتزيدهنّ إغراء وفتنة. ولأمر ما، تُسأل عنه الطبيعة الوهّابة المعطاء، شبّ هذا الإنسان الصَّنّاع كاتباً يخوض في أعراسنا وهمومنا وسواقينا وبيادرنا، ولكنه ظل ما خلتَه إذ قرأتَه صائغاً بدّل بأحجاره المتوهّمة مفردات لغة يتعامل معها بشَغَف ورهافة وحنان، كأنه قد أدمنها واستسلمت هي لصحبته وسنانة ولهى. فهو يتعاطاها، وهي ترفرف وتحطّ على ريشته وشياً وهمساً ومرايا وتنهّدات. إنه نقولا قُرْبان، أصدر كتابه المهفهف «نَيْسان» (دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٥٥)، ثم غاب قرابة عشرٍ وفاجأنا بعمله الريّان «نشيد الرُّخام» (دار الروائع، بيروت ١٩٦٤). وعاود الاحتجاب وأطال، فبتنا نترقّبه كما التائقون إلى الحرية تشرئبّ أعناقهم إلى مهديّ منتظَر. ووقعتُ مؤخراً على خبر ثقافي دخل جسدي موجة فرح، استقرّ في يدي حبة كستناء دافئة في كفّ مقرورة. فلطالما تردد في خاطري هذا السؤال: نقولا قربان، أين أنت؟ وها أن أديبنا على أهبة إنزال كتاب جديد يُطلّ به، كما فارس الأسفار الطويلة، كما العاشق المدنف، إطلالة فوح عميق ويسقط في جوارحنا ليعرّش ويستوطن.

بتنا عطاشاً، يا نقولا، إلى نبعك المزبد المسكون بالجمال وإلى كلماتك الحلوة الثائرة وفكرك الشعبيّ الصميم. فما بالك محتجباً ضنيناً شحّت

مياهك التي كانت تقتحم علينا ركودنا الروحي وغربت أشرعتك التي كانت تبحر في أوردتنا زوارق محمّلة بالفُلّ والحب والبلابل. هل أثقلت عليك الحرب الأهلية اللعينة؟ شعبنا جثة ذبيحة وغدت اللعبة عبثاً بعبث. فكيف تبني وطناً كلما طوى السنين العاقرة العاهرة ازداد خراباً ويُتماً وجنوناً، وانحدر إلى اللصوصية وضياع القيم وإهدار الكرامات؟ ولكنّ للقلم رسالة لا سبيل إلى أن يطويها أحدنا ويستقيل. يمضي النهّابون إلى القعر وتبقى الكلمات، مهما احلولكت الليالي، شاهدات على ضمير شعب يتوق إلى اللقمة الشريفة والغد البسّام. في غابة ليل شعبنا يضيء «سراج الليل» الذي يحوّم ببصيصه في الجنوب مقاومة باسلة وأكاد أقول، في خضمّ اليأس الذي نتمرّغ فيه، خارقة، وإنّا لها لهاتفون ومعتنقون. يموت الطفيليّون والمتعصبون والسارقون والمتكالبون والكَذَبَة، ولكن شعبنا سيشقّ في قلب النور طريقه وسيلملم، وإن طال المدى، عظام أجداده وأثداء نسائه وعيون أطفاله ومن ثم يبني وطناً، معبداً للهو السامي، حديقة، حِضْناً دافئاً، وراية العمل التي تخفق الأنواء بها فلا يلتوي لها عنق ولا تنطفىء لها عين.

نقولا قربان ليس أول أديب أهمله النقّاد، أو أنهم لم يعطوه ما يستأهل من عناية وتمعّن واكتشاف، ولن يكون الأخير. ما همّ، فهو بذر مواسمه فدخلت بوّابات الروح وما فات التاريخ الأدبي عندنا أن يسجّل أن لبنانياً مرهفاً ولج مسامّ العربية من رَدْهة الحداثة والإبداع. أما النقد في ثقافتنا العربية المعاصرة فيكاد المرء أن يقول: رحمه الله. مرّ وقت غابر كان النقد الصحن الدائم على مائدة الثقافة بين ظهرانينا، وبرغم الامتلاء الفكري الذي ألمّ بحياتنا الثقافية والسياسية فإن النقد الأدبي يتقهقر ويمّحي من صفحة وجودنا الذهني. هل هي جناية الإيديولوجيا على الأدب، أم أن العلوم الإنسانية قد تفرّعت وتشبّعت بحيث إن وجود الناقد الأدبي أضحى مسألة تحتاج إلى مساءلة وبحث وتقليب نظر؟

نقولا قربان لم ينتظر ولادة النقّاد أو اهتمامهم ليكتب وينزل إلى سوق

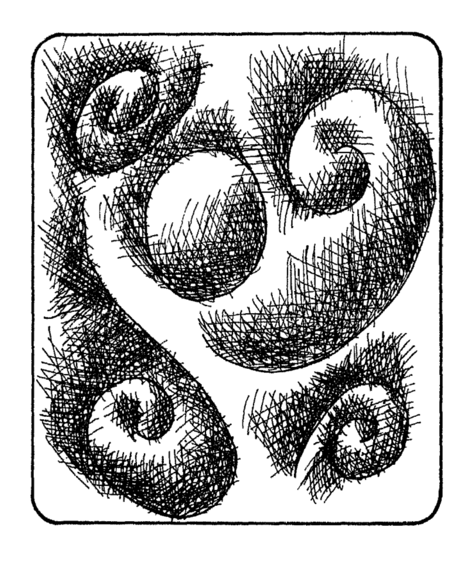
الناس. فالموهبة تخترق الحواجز وميليشيات الأدب وتطرح نفسها عَبْرَ صفحات تتصبب ندى كما الرعشة في الجسم العطشان. نتاج نقولا دلف إلى قلوبنا لأنه غمس ريشته في دواة الشعب، وأزهرت حروفه على حفافي التوتة والفنجان والسرير، والمحرمة والغصن والمنجل، والبرنيطة والسلّة والقرميد، والشلاّل والقُبلة والفراشة، والشبّابة والمعصرة والمطحنة والتينة وكوز الرمّان... إن أدبه كمنجة تنقر على أوتار عزيزة لأشيائنا المتفلتات وتشعل قناديل الذكرى المعتّقة في خوابي حياتنا القروية السمحة البريئة. يمثل هذه اللهفة الدافقة الصادقة العذبة ويمثل هذا العِشْق المزهر المقمر للطبيعة يكون حب وطن اسمه لبنان. ولكن أديبنا لا ينسى في غمرة حبّه الغادق لطبيعة بلده ومعالم القرية الريفية أنه فرد من هذا المحيط القومي الأوسع ومن الحضارة الأشمل. فاللبناني الحق كان دائماً مشرع الصدر والقلب والعقل لنسائم الانعتاق وموجات التقدم، فالغيتو اختراع أصحاب المستنقعات ورسالة لبنان إلى قومه والعالم كانت على الدوام انتصاراً للحرية. ونقولا يرفع عالياً هذه الآية ويهتف لمجد الإنسان وللمدينة الفاضلة والبطولة والحنطة والحياة. إن أدبه « مانيفستو » احتجاج يخرج من حناجر المتعبين والضارعين والصعاليك والحزانى والفقراء.

ههنا مع أدب نقولا قربان سموّ واستنارة وتمرد وكبرياء وامتزاج وانصهار ومعانٍ بِكْر لم تحبل بها اللغة في أمسها. ريشة نقولا ليست طالعة من ناووس قاموس عتيق مغبرّ، هي قصبة براها الحنين وقصّبتها ذاتية حسّاسة مترعة بالناس ومعاول الفلاحين، لاهثة على دروب الجمال والفن، مشغوفة بهذه القيثارة العربية التي صدئت أنغامها عند كَتَبَة السلطان وعَزَفَة القواميس. وخرج نقولا بإبداعه ونأى عن الرطوبة التي يأوي اليها بعض كرادلة اللغة من الذين يتعاملون معها جسداً بلا روح، ومعنى بغير أصداء، وكلمات فاترات كأنها خرجت من المعجم إلى أفواه البشر وجداول العيش الفوّارة، وليس حالها بخلاف ذلك تماماً، أي أن لغة الناس ومجاري استعمالها وما طرأ عليها من تقلّبات اجتماعية وحضارية هي التي تؤدي جميعها إلى نشوء معجم منفتح لشعب متطور تحت أهداب

الشمس. اللغة، لغتنا، ليست قلادة ميتة. إنما تحت الأقلام الزاهية من أمثال قلم نقولا قربان مهرجان فرح ورصاصة نضال وقارورة حب.

(١٩٨٥)


٦
نشيدُ الرُّخام والشمس



ميشال ألّلار
يسوعي خارج السرب

محنة الحرب الأهلية والوطنية والقومية معاً جعلتنا نعاشر الموت ونألف التضحية ونستقبل أخبار الشهداء كل يوم وكأنهم الضريبة التي يفرضها الوطن عند كل شروق وغروب من أجل استمرار حياته وديمومة تاريخه. ومع ذلك فكل شهيد يسقط تهتز مع استشهاده شبكة واسعة مرهفة من العلاقات الإنسانية والصداقات الدافئة والصلات الحميمة وتأوهات الحب وبحر الذكريات وألف ألف وقفة وقبلة وموقف.

وعندما جاءني الخبر ازدحم الأسى في صدري وران عليّ الصمت والانقباض. فالأب ميشال أَلْلار خسارة حقيقية للعلم والوطن والصداقة. وعندما ولجت الشظايا القاتلة إلى غرفته كان، ربّما، مكبّاً على المعرفة بين كتبه وأوراقه، فهو قد وقف حياته، شأن الرهبان الصِدّيقين، على العلم يجمع ذرّاته ويوحّد بينها ويدفع بها مقالات ودراسات ومحاضرات ومؤلفات. لقد أمضى قُرابة عشر سنوات ينقّب في مصنّفات الفلسفة الإسلامية بحيث أنجز عملاً أكاديمياً حول «الأشاعرة» هو أطروحته للدكتوراه. بيد أن ميشال أَلْلار كانت تتفتح عيناه الجميلتان على الحياة، وكان عنده من نَبْض الفكر والتحسس الوجداني والإدراك المستبطن والانفتاح الأوروبي ما جعله يبتعد رويداً رويداً عن الإيقاع الأكاديمي ويلج حَلْبة الهموم المعاصرة والقضايا الملحّة، مستضيئاً بالأفكار التقدمية والسلوك المتحرر. لقد غدا، مع قبضة جريئة من اليسوعيين ورجال الدين المسيحيين، وجُلّهم من الأجانب الذين يعايشون العصر وينصتون لإيقاعه، عنصراً مزعجاً وغير مرغوب فيه بالنسبة إلى الكنيسة اللبنانية، وخصوصاً

أن المآسي الراهنة برهنت بجلاء كلّي أن هذه الأخيرة، في شطرها النافذ والحاكم، ليست أحياناً سوى مؤسسة منسيّة من محاكم التفتيش، وصار كثير من الأديرة. كما كان يحدثنا الآباء والجدود بثقة ومرارة، مستودعاً للتخطيط الدنيوي الخطير وجبخانة للأسلحة الفتاكة. لهذا لم يصدر بيان في السنوات الأخيرة عن اليسوعيين المستنيرين في صدد الأحداث اللاهبة في لبنان إلا وكان اسم ميشال أللار. رئيس معهد الآداب الشرقية التابع لجامعة القديس يوسف، ماثلاً بارزاً فيه. وبدا هذا النَّفَس اليسوعي غير مألوف في هذا الوطن الصغير الذي عانى الكثير، وما يزال، وبنوع خاص من المؤسسات اليسوعية التعليمية التي تقارب الخمسمائة! فقد غرست في نفوس الناشئة اللبنانية التي تخرّجت على أيديها تربية مشوّهة تقوم في جوهرها على مفهوم «الألينة» والاغتراب والتضليل والتخريب النفسي والهجرة الداخلية. إن ما نشهده اليوم من خراب مريع يعود في أحد جوانبه التأسيسية، بلا شك إطلاقاً، إلى التربية اليسوعية المستوردة، ذات المظهر البورجوازي الناعم الأنيق، لكنها تحمل في طيّاتها بقايا الانتداب، قولاً وعملاً، وجذور الطائفية التي يسعى حُماتها إلى أن يظل هذا الساحل المشرقي العربي امتداداً للغرب الإمبريالي، ومضجعاً مخلياً للسياحة الداعرة، ومأوى فسيفسائياً للأقليات في الوطن العربي.

بيد أن ميشال ألّلار كان خروجاً على القاعدة اليسوعية التقليدية. ومَنْ يطالع أعداد مجلة «أعمال وأيام» الصادرة بالفرنسية عن المركز الثقافي الجامعي، الكائن عن عَمْدٍ وسابق تصور في محلة الجِرْج، والذي كان يشرف على نشاطاته الأب ألّلار، لا بد لقارىء هذه المجلة أن يلاحظ أنها تُطلّ على المشاغل اللبنانية والقضايا العربية، ومن بينها المعضلة الفلسطينية، بروح علمية جديدة، وأنها تبادر إلى التفاعل مع ما يحرك مجتمعنا من موضوعات. كان ميشال ألّلار يعيش في محيط لبناني متزمّت ويسوعيّ محنّط، لهذا بدت لي خطواته الثقافية متّسمة بالحَيْطة والحذر، فهو يمشي في حقل مزروع بالمحافظة والرّدّة والتعصب، لكنه كان يتقدم ويتحلق حوله الشباب والطلبة الجامعيون النازعون إلى التغيير ومواكبة

العصر والتنفس برئة لا تعطبها الطائفية البغيضة. كان هذا الأب اليسوعي، الربْع القامة، يمشي بالخير ويبذر النور في مسالك غطتها العَتَمة طويلاً، وبحكم مركزه الفاعل فقد كان شعلة ضياء وبَرَكَةٍ وعنصر جذب وتوحيد. لقد حَمَلَنا على أن ننتبه أن اليسوعية، عَبْرَ أمثاله، مشتقّة من يسوع، وأن يسوعاً يعني المحبة والتآخي والتلاقي على ما ينفع الناس ويرتقي بهم.

ويا صديقي الغائب، سوف يذكرك الكثيرون من المثقفين في لبنان وقد أمضيت ربع قرن في ربوعه، أي نصف عمرك بالتمام، فالوطن، في ليله الطويل ومخاضه العسير، بأمسّ الحاجة إلى أمثالك من رجال الدين المتحررين المتقدمين عقلياً ومسلكياً. ولن أنسى ما حييت ذلك الرجل الوديع الذي يتكلم بصوت خفيض هامس، ويبتسم بخَفَر فيشرق وجهه ويشيع النور الأبيض في أساريره. ولن تغيب عن بالي لقاءاتي الودودة بهذا الباحث اليسوعي الفاضل، ففي هذه الجلسات كان ميشال أللار يطرح جانباً التحفّظ فتتصل بيننا الساقية التي تحدّث عنها محمد النبي في قوله إن من القلب إلى القلب سبيلاً، ويشرع الأب الصديق يكشف لي عن شجونه ومصاعبه ومكنون نفسه، وهو مطمئن البال إلى أنه يخاطب إنساناً تقدمياً!

(١٩٧٦)

شمران الياسري
القلم الذي يبكيه النخيل

ليست شراكة القلم هي التي تحملني على الكتابة عن شمران الياسري، ولكنها اللوعة التي سكنتني، وأنا الباحث عن هدوء البال وراحة البدن في أحضان الجبل، عندما طالعت خبراً صغيراً. وبواعث اللوعة عديدة جارحة. فها أن كاتباً عربياً ناضجاً يقضي نَحْبه في حادث مؤسف في «براغ» حيث كان يعمل مراسلاً لوكالة «وفا». فتتلقف الصحافة الخبر الذي بثّته الوكالة وينشره محرر الصحيفة التي أطالعها عادة، ملحقاً بخبر آخر عنوانه «وفاة طفل أصيب في الفاكهاني» (١٨/٨/١٩٨١). ولو لم أقرأ هذا النبأ الأخير للوكالة نفسها لما دريت في آخر سطوره أن شمران قد رحل عن دنيانا غريباً منفياً. سخريات الأقدار التي طالما كتب عنها «أبو كاطع» تحلّ به، كما حلّت بأمثاله من الساخرين ذات عصر مضى، إذ يقال إن بديع الزمان الهَمَذاني أُنزل القبر ثم استفاق فيه، وقد عاد أنطون تشيخوف إلى وطنه نعشاً في قطار محمّل بالسمك! إسم «شمران الياسري» لم يعنِ شيئاً لمحرر الصحيفة فأدرجه طيّ خبر آخر وحشره!

هذا الرجل النحيل المديد القامة كأنه من بقايا رِماح «سمهر». وهو يفيض أناقة ورقّة ودماثة. ومذ تعرفت إليه في بغداد، وقد وفدتُ عليها مشاركاً في أحد المؤتمرات العلمية، حتى أشاع في نفسي الثقة والمودَة. أمثال شمران لا تتعرف إليهم، وإنما تحسب أنك تعرفهم منذ زمن بعيد وأن ظروف الحياة حالت دون اللُّقيا. ومع أني لم ألتقِ به إلا مرات معدودات فقد ولج روحي وتربّع منها في مكان عزيز. وتمضي قُرابة سنة وإذا بهذا

الرّمح الأنيق يطالعني بغتة في بيروت قبل أن نزل بها الخراب ولحقتها لعنة الإمبريالية التي حوّلت ماضي أسواقها أطلالاً. ومشينا عبر شوارع بيروت التي يشاهدها شمران للمرة الأولى، واحتسينا الجعة لدى «طانيوس» وكان قد صار «كوسموس» عند باب إدريس، وأفضنا في أحاديث شتى. وكنت في تلك المرحلة غارقاً في مشاغلي، فزوّدت شمران الذي جاء بيروت لحضور مؤتمر، برقم هاتفي ومواعيد العمل، وقلت له إني تحت إمرته خارج دوام عملي ودوام مؤتمره أحمله حيث يشاء ليتعرف على معالم لبنان ولياليه ومآكله. لم تكن دعوتي مجاملة، ولكنها كانت دعوة صادقة من القلب. ولم يتصل شمران برغم انتظاري وترقّبي، وعلمت بعدها أنه عاتب عليّ فتألمت، وأدركت يومها أن الأسلوب الأوروبي في التعاطي بين الأصدقاء لا يصلح بعدُ بين ظهرانَيْنا!

شمران الياسري يلتاع لفقده الباكر مثقفو العراق وأهله ونخيله لأنه في ما خطّ وكتب عراقي صميم، وإنْ كان فؤاده عربيّ الهوى أُمميّ اللفتات. وليس غريباً عليه أن يكون معنياً قبل موته الغادر بتأليف معجم يضم المصطلحات العامية العراقية وما يقابلها في العربية الفصحى، إذ أخصّ ما تميز به شمران أسلوبه الحاشد بالمفردات والتراكيب العامية، بحيث تحتاج ولا شك إلى أن تكون عراقياً لتتذوق حلاوة أدبه. وقد أهداني شمران روايته «الزناد» ذات الأجزاء الأربعة، فامتنعت عليّ بعراقيتها المغرقة، وقد «استعارها» مني أحدهم بعد إلحاح، وكم أشعر الآن بالغُصّة والغضب لفقدها، فلقد غدت بعد غياب شمران أثراً لا سبيل إلى تعويضه، وكم يشوقني لو أنها ظلت في مكتبتي أيقونة غالية تذكّرني بصاحبها ذاك الإنسان الطيب الأنيق الخجول.

أن يموت كاتب بعيداً عن مياه وطنه تلك مأساة حكومات أمتنا التي تأكل بنيها بدل أن تُرضعهم. فكم من مواهب مسفوحة بين الماء والماء، وكم من مظالم نازلة لعل مرتكبيها هم أول النادمين، لأن الليل لا يلد إلا الليل، ولا دواء شافياً لأسقام أمتنا المزمنة سوى الديمقراطية واحترام كرامة الفرد العربي. بمكنتك شراء آلة واستيراد مصنع، لكن الكفاءات

والمواهب والالتماعات هي ابنة الزمن ومخاض الحقب، فلماذا ندأب على إهدار ثروة الأمة الحضارية، أم أن الفكر عندنا شأن البترول مآله الضَّيَاع في مهب رياح خماسينية لا بكلّ لها صفير!

أغفت عيون شمران الياسري على حُلم النخيل، واستراحت آذانه من الصفير، فمتى ينعم هذا الوطن الكبير بخبز الحرية وبحبوحة الشُّورى، تُرى متى ينقطع الصفير؟

(١٩٨١)

عبدالرحمن اللبان
نموذج بيروتي جديد

قالت لي السمراء بلون الحِنْطة والنبيذ : كيف يموت الدكتور اللبّان ولا تكتب عنه زفرة وأنت المحب وأنت الوفيّ ؟ بلى ، يا عزيزتي ، إني فاعل . فنحن منذ سنوات لا نصنع سوى أن نسفح الدمع ونرثي أحبّاء وأصدقاء مضَوْا وتركونا نكابد اللوعة في زمن الضياع وموج الطوائف يعلو وهدير العصبيّات يُعمي الأبصار . حتى أننا عندما نأوي إلى بيوتنا ونخلع الثياب نخال عندما ننفضها أن التعب يهطل منها وتتناثر خيبات وآمال كالشُّهُب تهوي . بيد أننا لن نستسلم ولن نجعل اليأس يأكل من لحمنا . العدميّة عملة المهزومين وشعار البائسين ونَفَق المستسلمين ، والإصرار والصمود والصبر لم تُخترع لأيام الدَّعَة والسكينة وليست كلمات خطابية للزينة والصدى. وشعبنا الممزق الطعين يثبت كل يوم ، برغم ألف ثُغْرة وثُغْرة ، أنه أهل للحياة والإبداع . العجيب في أمره أنه ، وسط الظلمات ، يستنبط أسلحة المقاومة ويقلب الطاولة ويهاجم. وحكايته مع الإسرائيليين، خبراء التعذيب والنازيين الجدد ، يافطة دم ونور .

وبعد ، أحقاً أن عبد الرحمن اللبّان قد رحل (٢٠/١١/٨٤) من غير أن يلقي علينا ولو تحية وداع ؟ لقد انفجر قلبه شظايا وخرج من صدره طائر رفرف ومضى. كيف ذهب الدكتور على حين غِرّة ونحن بحاجة ولهفة إلى فكره وساعديه ودفق مواهبه ، وهو ما ضنّ بها مرة وما نكص. ما باله أخلف العهد والوعد وأسقط الأمانة وشد أشرعته إلى البعيد البعيد والليل عاصف والنفوس مبلبلة ، فلم يترك لنا فَجْوة أمل أو فُسْحة زمن لنلوّح بالمناديل ونعزف له من أشواقنا ترنيمة ومن حبنا له وإعجابنا به

وحرصنا عليه عِقْد ياسمين وشهقة صدر حزين.

ذهب الدكتور اللبّان باكراً في شرخ الرجولة والعطاء (١٩٢٤ - ١٩٨٤). والبكور ليس غريباً عليه ولكننا لم نحسب أنه سينقاد اليه أيضاً في موضوع الحياة أو تأخذه به المنون ولا رادّ لحكمها. ففي عز الأيام العصيبة من حربنا الأهلية ذات الأنياب والأهوال، حينما غادر الكثيرون من «الرجالات» أرض الوطن ليتفيأوا الراحة والنعيم والسهر والهناء هنا وهناك من جوانب المعمورة اللاهية، بقي عبد الرحمن اللبّان في بيروت المنهكة المقرّحة الجفون. ولكم شاهدته على كورنيش المزرعة في الصباحات المتوترة يسلكه باكراً ماضياً إلى العمل، إلى مستشفى دار العجزة الإسلامية، وهو الذي جمع في شخصه ورشة من الاهتمامات والصّبوات والشواغل والهوايات. هذا الإنسان الذي فقدناه إنما كان جذوة ثقافة. لقد أعطانا النموذج الجديد للبيروتي، وليس هو البيروتيّ التاجر الذي لا يعرف من الحياة سوى النارجيلة ويتحصّن في أُميّة وجهالة ولا مبالاة. إن الدكتور اللبّان خرج من صُلب بيروت الشعب، وظل في لهجته الكلامية وردود فعله وتطلعاته الوطنية على العهد مقيماً. وكم هو جميل هذا المسار الذي سلكه صُعداً في الالتزام بقضايا الناس. لقد أصبح على رأس «النجدة الشعبية» فكبُرَت به وكَبُرَ بها. خطا بها نحو المؤسسة الكبرى، وسافر في حميّة وحماسة ليأتي لها بالملايين من التبرعات التي كانت المدماك الأساسي في نهوض صَرْحها المتنامي مستوصفات ومستشفيات. وسمعناه قبل ما يزيد على الشهرين من على مِنَصّة ملعب شبيبة المزرعة يخطب داعياً إلى العَلْمانيّة والإنصاف والتحرير. فكان الموقف والموقع والرأي شهادة ووساماً لرجل علمٍ لم ينسَ جذوره ولم يتخلَّ عن أصالته وعن الدور المأمول الذي يجيش في الصدور حيال طاقة مبدعة كالتي كانها عبد الرحمن اللبّان.

كان أملاً مشعّاً للمتعبين الذين أرهقتهم الحياة وأصابهم القَدَر في أعصابهم. ثم جاءت حربنا الفريدة واهتزت جُمَل عصبية وعقول، فسكب الدكتور اللبّان فيها من علمه وعقله وقلبه، وكان الأب الحدوب

للكثيرين من الذين ضرب نفوسهم القلق وهدّهم الأرق. وأذكر أني سألته خلال لقاء، وكنا بعد ما نزال في أهوال سنتي ٧٥ ـ ٧٦ من حربنا الأهلية ذات السبع أرواح، عن الحالات العديدة التي يتصدى لعلاجها في هاتيك الأوقات، فقال لي: الصعوبة ليست في هذه الحالات لأنها قابلة للشفاء بواسطة الأدوية، وانما الأمر الحقيقي يكمن في الناس كل الناس الذين يصمدون الآن ويتماسكون بحكم المسؤولية ولكن على حساب أعصابهم، وعندما تهدأ الأحوال ستراهم عندها يتهافتون! ولكم استعدت قوله هذا خلال العام الحالي، ١٩٨٤، القاسي على شعبنا حتى الوجع والبكاء، إذ غدا جمع غفير من المواطنين يتناولون الحبوب المهدئة والمنوّمة على أنواعها لكأنها القضامي! وخربت جُمَل عصبية وتمايلت نفوس وعانت أرواح. إن شعباً بأكمله على شفير التهافت والانتحار الجماعي، فمتى يدرك حَمَلَة السلاح من فئة الرؤوس الحامية أن المقامرة المتمادية ستودي بنا جميعاً إلى الهاوية؟

ولكن عبد الرحمن اللبّان في كل ما تعاطى من أعمال، وهي جمّة ومتنوعة، كان هناك نغم واحد يسري في عطاءاته: إنه الفن. كان محبّاً للغناء والموسيقى التراثية الأصيلة، لهذا عمر منزله بمكتبة موسيقية منتقاة مجهّزة، وكان آخر من نزل هذه الصومعة ضيفاً مكرّماً الشيخ إمام لدى زيارته مؤخراً لعاصمتنا. ومتحف سرسق عرف هذا الوجه البشوش، فقد كان عضواً في المجلس القيّم على هذا الـمُتْحف الوطني، كما شارك غير مرة في اللجنة التحكيمية لصالون الخريف الذي كان تظاهرة فنية مرموقة يقوم بها المتحف كل عام، ثم وفدت الحرب فقضت على تألق الصالون واستمراريته كما قضت على العدد الوافر من الآمال والمطامح في بلدنا. وكان مقدّراً أن يشارك عبد الرحمن اللبّان في صالون الخريف لهذا العام الذي افتُتح في هذا الشهر عضواً في لجنته التحكيمية، لكنه رحل قبل أن يعطي رأيه وهو الفنان المرهف الذي كان يرسم على سبيل الهواية ولم يكن يوقّع أعماله. فالكثير من كاسيتات مرسيل خليفة زيّنت أغلفتها ريشة اللبّان، والكثير من قصص الأديب المبدع محمد عيتاني كانت صورها

التزيينية من عطاء ريشة اللبّان. وإذ أقلّب بين يديّ مجموعة أحتفظ بها من الرسوم المائية لعبد الرحمن اللبّان أتذكّر حساسية هذا الإنسان وحبّه لأبناء بلده بغير تمييز وتعشّقه لهذه المدينة بيروت التي خرج من بين أضلاعها ورسم بحرها ورأس بيروتها وصبّارها وصيّاديها وناسها الشعبيين المحببين. ولقد كان عبد الرحمن اللبّان في صميمه موجة شعبية بيروتية، لكنها موجة حُبْلى بالموهبة والتنوّع والتطلب والمعرفة والوطنية.

قالت لي السمراء بلون الحِنْطة والنبيذ: هلاّ كتبت عن عبد الرحمن، فأجبتها: وما نفع الكتابة في رجل يكتبه الأسف والأسى والدمع والحنين!

(١٩٨٤)

بنجامين مولويزي
شاعر هارب من نعشه

يا شاعري، توالت المناشدات من أنحاء الدنيا لإنقاذ شبابك من أنشوطة المشنقة، ولكن حكام بريتوريا عقدوا العزم على التخلص من أحد أصحاب الدواوين، فالشعر سلاح خطر. والشعر والعنصرية كما الحب والبغض، كما النار والنفط، لا يأتلفان أبداً. والمستبدون في التاريخ كانوا دائماً يُضمرون العداء الغريزي للثقافة، أليس أحد زبانية هتلر هو القائل إنه ما أن يسمع بكلمة الثقافة حتى يضع يده مباشرة على مقبض مسدسه؟ ولمدة غير بعيدة لاقى مواطن في بلد عربي مصيراً مروّعاً، لقد تمّت تصفيته جسدياً. وذنبه كان كبيراً وشنيعاً لا يُغتفر، كان صاحب مكتبة يبيع الوعي والإحساس والمستقبل الطالع من صفحات الشعراء والأدباء والمفكرين!

أنا لم أعرفك يا مولويزي، لقد تمّ التعارف بيننا صباح الجمعة في ١٨ تشرين الأول ١٩٨٥ في باحة سجن بريتوريا المركزي، وذلك عندما غدوتَ جسداً متأرجحاً يخفق كالراية وينادي شعباً مسحوقاً حتى العظم. وفي خارج السجن، عَبْرَ المدن والحقول والوديان وفي ثقوب الأكواخ وفوق بيوت التنك الممتدة، مضى جسدك يقرع الأبواب ويهز الأفئدة. خال حكام جنوب أفريقيا أنهم حشروك في نعش وأطبقوا عليك غطاء سميكاً، ولو أتيح لوالدتك الملتاعة «ماميكي» أن تفتح هذا النعش لما عثرت فيه على شيء، ولاتّهمت الجلادين عندها بإتلاف قامتك المطفأة ذات الثلاثين ربيعاً. أقلع جسدك خارج نعشه يجول بين المزارع ويدخل على المعدمين في أماسيهم الحزينة يشدّ على أيديهم وينزع من قلوبهم اليأس

والقنوط. جسدك المتأرجح صار جرساً وشِعرك إنجيل الفقراء. إرتكبوا التصفية الجسدية في حق شاعر، وما دروْا أنهم إذ قتلوه لقد ابتعثوا فيه حياة دائمة متجددة كمواسم المطر والعِشْق.

أعذرني يا بنجامين، أنا لم تسقط بين يديّ لآلئك الشعرية ولم أتنسّم هواء الحرية يصعد من حزمة النور التي تضيء طيّ إهابك الأسود. ولكن مطامح الشعراء وأحلامهم واحدة: عالم جميل لا خِسّة فيه ولا ظلم ولا هوان. تختلف الأثواب الشعرية غير أن النغم هو إيّاه والحُلْم الورديّ الأخّاذ ذاته يسري في مفاصل الأبيات الموجوعة وينداح مع مراكب الشعر السكرى، برغم تباين الألسن والأبجديات واختلاف طريقة الكتابة طولاً أو عرضاً ومن اليمين أو الشمال. لستُ داعياً الشعراء ليحكموا العالم، فهذه مهنة لا تتناسب ومثاليّاتهم ولا تتفق مع الصفاء والبراءة والوجد التي ترشح من أقلامهم. ولكنهم لقرون خلت، منذ هوميروس أو، ما قبله بكثير، مذ نَبَضَ وجدان في تاريخ الإنسان واضطرب خاطر، يتربعون قلقين سعداء في قلوب البشر يحكمون بسلطان الحب وصولجان الإبداع.

رمَوْكَ، يا بنجامين مولويزي، بتهمة ملفّقة، ثم عندما أعيتهم الحيلة في إدانتك دفعوك وأنت تحت حبل المشنقة لطلب العفو، بحيث اذا ما أقدمت عليه اعتبروا هذا الالتماس «اعترافاً» وبالتالي يجهزون عليك عندها بناء على هذا الاعتراف. ولكن الخديعة لم تنطلِ عليك وظللت ثورياً يقظاً صلباً، ولم ينل منك هؤلاء العنصريون الذين استوطنوا بلادك ثم انتزعوها من أهلك وعشيرتك وجعلوها بثرواتها الكبرى مرتعاً لهم وجنّة مغتصبة. رمَوْكَ بجريمة قتل فردية أو بالتستر عليها، ونسوا جريمتهم العظمى في قتل شعب بأكمله. ألم يقل لأمثال هؤلاء الأوغاد زميلك الشاعر الجليل ڤكتور هوغو: قتلُ امرىء في غابة جريمة لا تُغتفر، وقتلُ شعب آمن مسألة فيها نظر! تحرير الأوطان من مغتصبيها مسألة لا تستأهل النظر عند جَمَعَة الأموال وقَتَلَة الشعوب وطَلَبَة الدماء.

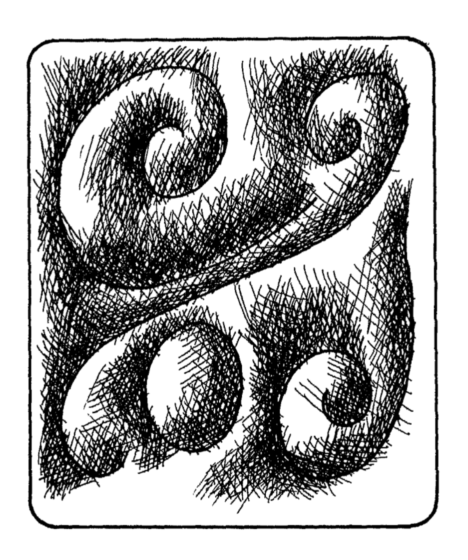
لقد كتموا صوتك أيها الشاعر، كما هم يحشرون الآلاف في السجون

ويسلطون الرصاص والسياط والكلاب على شعبك المنتفض منذ أشهر ضد التفرقة العنصرية والظلمات التي تكبّله، وتشهد جوهانسبورغ وسويتو والكاب وإثلون مشاهد الاضطهاد ونوافير الدم. ولكن حتى متى تتغلب أدوات التنكيل على الخبز والكرامة وزجاجات الحليب، حتى متى تُداس تواريخُ وصدورُ نساءٍ وابتساماتٌ بيضٌ لأطفال سود؟

يا شاعري، موتك البشع دليل ساطع على أن النظام الحديديّ المحصّن تخترقه قصيدة شاعر وأن شعباً يلد الشعراء جدير بأن يصنع الحرية.

(١٩٨٥)


فهرس المحتويات



(١)

صراخ وهمس

(٢)

الحب يدعى «نهدية»

(٣)

أرق وورق

(٤)

ذكريات حنون

(٥)

أسماء دافئة

(٦)

نشيد الرخام والشمس

صدر

للدكتور أحمد علَبي

☆ ثورة الزّنج، وقائدها عليّ بن محمد (١٩٦١)

☆ ابن المقفَّع، مُصلح صرعه الظُّلم (١٩٦٨)

☆ الإسلام والمنهج التّاريخي (١٩٧٥)

☆ طه حُسَين، رجل وفكر وعصر (١٩٨٥)

☆ ثورة العبيد في الإسلام (١٩٨٥)

☆ تحت وِسادتي، مقالات واعترافات وذِكريات (١٩٨٦)

☆ العهد السرّي للدعوة العباسيّة، أو من الأمويين إلى العباسيين (قيد الطبع)

Aḥmad 'Olabi

Taḥta wisādatī

ts, confessions, souvenirs

Dār al-Fārābī
Beyrouth, 1986